حصاد العمر

ما بين الجد واللهو والقرب والبعد

إعداد : د. سحر علي العقدة

عنوان الكتاب : حصاد العمر ما بين الجد واللهو والقرب والبعد

اسم المؤلف : علي العقدة

تدقيق لغوي : صفاء أحمد

تصميم الغلاف : أميرة نور الدين

الطبعه الاولي ٢٠٢٥ / ٢٠٢٦

رقم الايداع : ٢٠٢٥/٣٢٩٣٥

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٦٣٣-٨٣٢٩-٥٠-١

مؤسسة القاهرة اليوم للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظه ويمنع طبع أوتصوير أوتخزين أي جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابي من الناشر.

من يملك سببا يعيش من اجله ، يمكنه ان يتحمل اي كيف

فريدريك نيتشه

عن المؤلف

وُلد هذا المفكر الفلسفي في بيئة متأرجحة بين الفقر والغنى، حيث شاءت الأقدار أن يبدأ رحلته في معترك الحياة مبكرًا، عاملًا أجيرًا في الحقل وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره. ومع بزوغ مراهقته، انتقل إلى نهر النيل، فصار صيادًا ماهرًا، يتقن الغوص والسباحة، ذا جسد رياضي قوي البنيان، ويقضي لياليه متأملًا في السماء وهو داخل مركب الصيادة، يتساءل عن سر الوجود، ويتفكر في اتساع الكون وضيق الحياة.

نشأ في كنف أسرة كبيرة العدد، قليلة ذات اليد، عانت من الظلم الاجتماعي والعائلي، وهو ما ترك في نفسه جرحًا غائرًا شكّل رؤيته للعدل والحياة. في زمنٍ كان التعليم فيه ترفًا لا يُتاح إلا لأبناء الأغنياء، أصرّ على أن يشق طريقه نحو المعرفة، متحديًا الفقر وكثرة المسئوليات، وماضيًا في تعليمه حتى التحق بكلية أصول الدين، حيث وجد في الفكر والعقيدة سبيلًا لفهم ما يعجز الواقع عن تفسيره.

لم تكن رحلته سهلة؛ فقد أصيب في مراهقته بمرض البلهارسيا، وأمضى فترة للعلاج في مستشفى حكومي "إقامة داخلية" لفترة، وهي تجربة ألقت بظلالها

علـى جسـده، لكنهـا عمّقـت مـن تسـاؤلاته الروحيـة. وبـين أروقـة العلـم وظـلال البحـر وصـعوبة الظـروف، تشـكَّل وعيـه، فجمـع بـين التجربـة الحسـية والتأمـل العقلي، وبين سعي الجسد وتوق الروح.

تمتـع منـذ صـغره بـذكاء حـاد وموهبـة بيانيـة، يكتـب الشـعر والنثـر، ويأسـر الأسـماع بخطابتـه المـؤثرة. عمـل مدرسًـا وهـو لا يـزال طالبًـا، ثـم سـلك طريـق الـدعوة الإسـلامية، فكـرّس لهـا قرابـة أربعـين عامًـا مـن عمـره، يبـث فيهـا فكـره، ويزرع فيها القيم.

وفـي أواخـر أيامـه، اتّشـح بالحكمـة، فصـار عالمًـا زاهـدًا، ومفكـرًا عميـق التأمـل، يحمـل بـين ضـلوعه قلـب العابـد، وفـي عقلـه نـار الباحـث عـن الحقيقـة. كتابـه الفلسـفي لـيس مجـرد نتـاج علـم، بـل خلاصـة حيـاة كاملـة، عَبَـر فيهـا تضـاريس الفقـر والمـرض والظلـم، وخـرج منهـا بفكـر ناضـج، ونظـرة شـاملة إلـى الحيـاة والكون والإنسان.

إهداء

إلى أبي..

الذي منح عقلي حرية الفكر، وكان له الأثر العميق في تكوين شخصيتي، حاضرًا في حياتي، وأشد حضورًا بعد رحيله.

أحبك يا أبي، حبًا وُلد في فطرتي، وسكن قلبي ما حييت.

وإلى أمي، وإخوتي : إيمان، ومحمد، ونورا...

كنتم حبل النجاة حينما أوشكت على الغرق، ولولاكم ما خفَّ الحمل، ولا استطعت الصمود أمام ما لم أُحِط به خبرًا.

وإليك أنت، أيها القارئ العزيز...

من أجلك كتبت هذا الكتاب، وجمعت كلماته حرفًا حرفًا.

صورتك وأنت تقرأ الآن كانت حاضرة في مخيلتي، وهي ما منحني الدافع لأُتمَّه حتى النهاية.

سحر علي العقدة

" أبدية الإنسان ووجود الخالق "

وجدتَ نفسك يومًا في هذا العالم، دون أن تختار مجيئك إليه؛ أحاطت بك بيئة ذات طقوس وعادات ودين، وتلقّيت آراءً ومعتقدات لم تُمنح حرية اختيارها؛ ومع مرور الوقت، بدأت تسأل : كيف وجدتُ نفسي هنا؟ ومن أوجدني؟

أدركت أن لكل موجود واجدًا، وبدأت تفكر، ثم تتمرد على المعتقدات التي نُقلت إليك؛ قمت بالمقارنة بينها وبين غيرها، وشعرت أن وعيك قد تجاوز حدود القبول الأعمى، وبدأت الشكوك تتسلل إلى داخلك، تتساءل بعمق عن كل فكرة حملتها دون وعي.

تأملت ذاتك، وقلت : " من أنا؟ وما هذا الجزء الخفي فيّ الذي يطرح هذه الأسئلة؟ "

هل أنا، كما أرى، مجرد جسد مادي يتكوّن من خلايا وأنسجة وأعضاء، تجمعها وظائف فيزيولوجية حيوية؟ لكن، كيف أُدرك؟

وكيف تفسَّر المشاعر؟ هل هي مجرد إشارات كهربائية تمر عبر الجهاز العصبي؟

وإن كانت كذلك، فكيف يمكن لتلك الإشارات الجامدة أن تخلق حبًا، وإبداعًا، وتضحية، وعزيمة، وألمًا، وأملًا؟ كيف لعمليات مادية صرف أن تصنع شيئًا ساميًا كهذا؟

هذا التوتر العقلي، وهذا الارتباك الذي ينهشك من الداخل، ليس ضعفًا... بل دليل حياة؛ تمسّك به، ولا تهرب منه، فهو البرهان على حريتك، وعلى أنك تبحث، وأن الأمل لا يزال حيًا فيك.

لا تلتفت إلى من يطمس هذا التشوّش بإجابات جاهزة لا تشفي جوع العقل، ولا تُرضي قلق الروح.

في كل ما حولنا من ظواهر طبيعية ونظام كوني دقيق، لا توجد عملية واحدة تحدث بمعزل عن أخرى؛ لا بد من حدث ومستشعر، من حركة ومرجعية تُقاس بها؛ فكما في الفيزياء، لا يمكن فهم حركة إلا من خارجها، كذلك لا يمكن إدراك الذات من داخل الجسد فقط.

إن الإدراك، والاستنتاج، وتكوين الشعور، والتعاطف مع الآخرين، كلها عمليات لا مادية، لا يمكن اختزالها في مجرد وظائف جسدي.

لا بد أن هناك جزءًا في الإنسان يعلو على الجسد، يراقب، ويشهد، ويختار. جزء لا يخضع للزمان ولا للمكان، لا تهزمه الشيخوخة ولا تفتك به الأمراض، ولا يذوب مع تحلل الجسد.

سمِّه ما شئت : الروح، أو الإرادة، أو النية، أو الشخصية... لكنه هو أنت؛ هو كينونتك الحقيقية، هو الجزء الذي يحكم الجسد، ويضبط أفعاله، ويُسأل عن نواياه؛ هو ما يبقى بعد أن يفنى كل شيء.

يقول الفيلسوف تولستوي :

" إن الحياة الحقيقية تبدأ عندما يتغلب الإنسان على النفس الحيوانية فيه، وعندما يتوقف عن التفكير في نفسه، فيبدأ ميلاده الجديد، الذي يحب فيه جاره مثل حبه لنفسه "

وهنا يتحدث تولستوي عن الجزء الروحاني وعن النية، ويفصلهما عن الجسم المادي، فيقول : **" النفس الحيوانية "**

فكما نرعى أجسادنا ونغذّيها ونُعنى بصحتها، فالأَوْلى أن نهتم بما هو أعمق وأبقى... بروحنا وشخصيتنا، فهي حقيقتنا الخالدة، أما الجسد فليس إلا مركبة مؤقتة، تحملنا لفترة محدودة، ثم تنتهي صلاحيتها ونُكمل المسير من دونها.

وكلما تأملت، وتخلّيت عن معوقاتك المادية، وانعزلت عن ضجيج العالم، وحاولت الغوص في أعماق ذاتك، وركّزت على الإحساس بالروح وحرّيتها،كلما اقتربت من النقاء؛ تترقّى، وترتقي، حتى تصل إلى شعور عجيب بالاتحاد... اتحاد مع الكون، مع كل الكائنات، مع أصل الروح وسبب وجودها، مع جوهر المخلوقات ووحدة الخامة التي صُنعت منها الحياة.

هناك، في تلك اللحظة الفريدة، تستشعر الحقيقة الكبرى... الخالق، الواجد، مَن بيده كل شيء؛ هو من يمنحك القوة، ويهبك السكينة، ويملأك بالطمأنينة والسكوت الجميل... هو من يغذي فيك الإبداع، ويوقظ فيك لذّة الوجود، ويملأك بطاقة لا نهائية، تنبع من مصدر لا ينضب.

قد يبدو هذا الكلام بعيدًا للبعض، لكنه، في لحظة ما، حدث لك؛ شعرتَ به.

ذاك الشعور الغامض بقوة عظمى تتواصل معك، وكأنك شعاع خرج منها، وما زال موصولًا بها.

شعرت بالقرب من الله، ذاك القرب الذي يكون فيه أقرب إليك من حبل الوريد.

فـي هـذه الحالـة مـن الحضـور الروحـي، يصـبح القلـب هـو الوسـيلة، وهـو الشـرط الوحيـد للـدخول إلـى حضـرة الإلـه (المصـدر)، لكـن لحضـور القلـب شـروط، لا بـد للسـالك (الـداخل) أن يتجـرّد، أن يخلـع عـن نفسـه كـل مـا يتعلّـق بالأنـا؛ يخـرج مـن غـرور المعرفـة، فـلا يقـول : " أنـا فـلان، العـالم، العـارف، صـاحب المؤلفـات "؛ يتطهّـر مـن زهـو العمـل، ومـن فتنـة العبـارة، ومـن سـحر اللفـظ، ومـن سـلطان الـنفس؛ يتخلّـى عـن غرائـزه وشـهواته، وعـن عاداتـه وأهوائـه، ويـردّ الفضل كله لله.

يتبـرأ مـن جاهـه، ومـن حولـه، ومـن طولـه، فـلا يـرى فـي نفسـه شـيئًا يسـتحق الـذكر، ولا فـي أعمالـه مـا يوجـب التفـاخر، ويستشـعر ضـآلته وتلاشـي مـا حولـه فـي الـدنيا، هنـاك فقـط، يصـبح القلـب حاضـرًا، ويُفـتح لـه البـاب ويتصـل بالأصل.

ويقول (مصطفى محمود) في كتابه " **رأيت الله** " في حديثه عن الله :

" ولـو سـألنا قلوبنـا عـن الله لأغنتنـا عـن كـل ذلـك الجـدل والتـدليل، فهـو حاضـر في القلب مشهود للقلب على الدوام.

هـو الوحيـد الصـخرة التـي نلقـى إليهـا المراسـي فـي بحـر القلـق والتغيـرات والتقلبات، حيث كل شيء يغرق بنا إذا لم نتشبث به ونلجأ إليه.

وحيث تغمر قلوبنا السكينة حينما نستودع همومنا عنده ونسلمه مقاليدنا.

وما أكثر الأدلة إذا طلبنا الأدلة على وجود الله.

وما أغنانا عن الأدلة إذا حاولنا أن نفهم كل شيء بفطرتنا النقية وإحساسنا العميق "

إن الصلة بين المخلوق والخالق ليست امتيازًا يُمنح للإنسان وحده، بل هي خيطٌ سرّي يسري في جوهر كل ما أوجده الله، فكل كائن، على قدر نقائه واستعداده، يتلقى إشارات من النور الإلهي وفق ما وُهب من طاقة التحمل والفهم.

فالخالق جلّ شأنه لم يخاطب الإنسان فقط، بل أودع في الكون كله سرّ الوحي والاتصال؛ أوحى إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا، وكلم النار في شأن إبراهيم عليه السلام فقال لها : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩)؛ ووجه أمره إلى السماوات والأرض، فاستجابت له طوعًا، إذ قال : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

ولم يكن الوحي حكرًا على الأنبياء، فقد ألقى الله السكينة في قلب أم موسى، وهي ليست نبيّة، فقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (القصص: ٧)،

وكـذلك مـريم عليهـا السـلام، تجلّـى عليهـا الخطـاب الإلهـي عبـر ملَـكٍ مـن ملائكته، فكانت من القانتات الطاهرات، لا من المرسلين.

فالتواصـل الإلهـي لا يُقـاس بالمقـام ولا بالمنزلـة فـي ميـزان البشـر، بـل بمقـدار صفاء الروح وقربها من أصلها النوراني.

وكـل كـائنٍ، مهمـا كـان، يحمـل فـي داخلـه قبسًـا مـن ذلـك النـور، يسـمع النـداء بطريقته الخاصة، ويفهم الخطاب على قدر صفائه واستعداده.

إنهـا علاقـة سـرمدية بـين الخـالق ومخلوقاتـه، تنـبض فـي الوجـود كلّـه، وتُـذكّرنا بأن كل ما في الكون يسبّح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم.

أمـــا الأنبيـــاء، فكـــان تواصـــلهم بـــوحي مباشـــر عـــن طريـــق الملائكـــة. وقـد يكـون الوصـل للبشـر عامـةً عبـر الرؤيـا، أو الإلهـام، أو حتـى كلمـة عـابرة على لسان شخص لا يدري ما قال، لكنها تقع في القلب بصيرة وهدىً.

فالتواصـل مـع الخـالق يـتم مـن خـلال الـروح، وهـذه الـروح لا تفنـى، لأنهـا ليسـت مـن هـذا العـالم الزائـل، بـل هـي نفحـة مـن الواجـد المطلـق، جـزء مـن الأصـل الأزلي، الذي لا يعتريه الفناء.

هـــي مـــا يربطنـــا بالســـماء، وهـــي الحقيقـــة التـــي تبقـــى عنـــدما يتســـاقط الجســـد وينحلّ، فلا تنتهي الحياة بانتهاء الجسد، لأن ما هو أعمق منه.. باقٍ.

يقول (Lloyd C Douglas) في روايته (Magnificent Obsession) :

" كما أنا متأكد من بقاء الشخصية بمجرد أن تختبر اتصالًا حيويًا بالشخصية الرئيسية، تصبح مدركة أن قوتها مستقلة تمامًا عن الأشياء المادية.. في رأيي هذا واضح.. الشخصية هي كل ما يهم "

(المقصود هنا أنه بمجرد أن تستشير وتجرب الروح تواصلها مع الخالق، أو كما يسميه الكاتب الشخصية الرئيسية، تشعر أنها قوية وأنها كل شيء، وأنها أقوى من الجسم المادي ومستقلة عنه، وأنها الأهم)

" الورود في هذه المزهرية ليس لها معنى لبعضها البعض، ولا معنى لنفسها، النمر لا يعرف أنه نمر، لا شيء في العالم له أي حقيقة إلا كما أعلنت شخصيتنا أنه حقيقي؛ استبعد الشخصية من المخطط ولن يتبقى أي أهمية لأي شيء! أدرج الشخصية في المخطط وسيتم شرح الأمر برمته تلقائيًا "

(يقصد هنا أن الروح هي التي تعطي قيمة ومعنى للأشياء، وبدونها يعتبر الكون ما هو إلا كتل مادية ليس لها معنى)

يقول (Lloyd C Douglas) في نفس الرواية عن الروح :

" لا أستطيع أن أقول (روحي) كما أقول (قبعتي) أو (كبدي)... أنا روح! ولديَّ جسد! جسدي متهالك وعندما لا أستطيع إصلاحه مرة أخرى، سأقوم

بإخراجه إلى كومة الخردة، لكن لا يجب أن يتم التخلص مني معه! أنا مرتبط بالشخصية الرئيسية! مثل شعاع من أشعة الشمس؛ لن أفقد قوتي إلا إذا فقد هو قوته، إذا كان هذا هو الدين يا جدي فأنا متدين! ولكن أفضل أن أفكر فيه باعتباره علمًا " انتهى.

(المقصود بكلامه عن الشخصية هي الروح، والشخصية الرئيسية هو الخالق)

إن التواصل مع أصل الروح، هو في حقيقته تواصل مع خالقها، فهي من أمره، كما قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (الإسراء: ٨٥).

وكلما اتبعتَ تعاليمه، واستجبت لندائه فيك، شعرت بقوة وجودك، وامتلأت بمعرفة ذاتك على حقيقتها؛ فتزهد في الدنيا دون أن تهرب منها، وتدخل في حالة من الانسجام العميق، والرضا العجيب، مهما كانت تقلبات الحياة وأحداثها.

وفي هذا التواصل الصادق، يُسخَّر لك الكون، وتُفتح أمامك أبواب الإلهام، وتنساب إليك الأفكار، وتتفجّر طاقات الإبداع؛ كل ما تحتاجه يُمنح لك، وكل ما تسعى إليه يتهيأ في طريقك، لأنك لم تعد وحدك، بل أصبحت من أولياء الخالق، من خاصّته، الذين يحبهم ويقربهم، ويُميزهم أحيانًا بمكانة تفوق ما نتصور، فيحظى بنعيم الدنيا والآخرة، ففي قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: ٨٦).

والشرط هنا للإجابه في قوله : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾، وهو الاستجابة لله ولأوامره ونواهيه واتباع منهجه.

قد يكون هؤلاء الأولياء — في خفائهم وتواضعهم — أقرب إلى الله من كثير من الناس، بل وحتى من بعض رسله، لا من حيث الوظيفة، بل من حيث الوصل والمحبة، إذ إن مقام النبوة يُبلِّغ، أما مقام الولاية فيُغذِّي القلب مباشرة من نور الله.

فالرسول الكريم مهمته أن يدلّك على الخالق، ويعرّفك به، ويفتح لك الباب؛ أما الدخول، فلكلٍّ نصيبه فيه، ولكلٍّ فتحه، ودرجته، وقربه، على قدر صفائه واستعداده.

وقد يبلغ العبد في محبته واتصاله وذوبانه في نور خالقه، مرتبة من القرب لا تُقاس بالألقاب، بل تُوزن بالقلوب؛ فيكون بينه وبين الله ما لا يكون بينه وبين الخلق.

فعن أبي مالك الأشعري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : " **يا أيُّها النَّاسُ اسمعوا واعقِلوا، واعلَموا أنَّ للهِ عزَّ وجلَّ عبادًا ليسوا بأنبياءَ، ولا شهداءَ، يغبِطُهم النَّبيُّون والشُّهداءُ على منازِلِهم وقُربِهم من اللهِ، فجثا رجلٌ من**

الأعرابِ من قاصيةِ النَّاسِ، وألوَى بيدِه إلى النَّبيّ ﷺ فقال : يا رسولَ اللهِ ناسٌ من النَّاسِ ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبِطُهم الأنبياءُ والشُّهداءُ على مجالسِهم، وقُربِهم من اللهِ، انعَتْهم لنا جَلِّهم لنا – يعني صِفْهم لنا شكِّلْهم لنا، فسُرَّ وجهُ النَّبيّ ﷺ بسؤالِ الأعرابيّ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : هم ناسٌ من أفناءِ النَّاسِ، ونوازعِ القبائلِ لم تصِلْ بينهم أرحامٌ مُتقارِبةٌ، تحابُّوا في اللهِ وتصافَوْا يضعُ اللهُ يومَ القيامةِ منابرَ من نورٍ فيجلِسون عليها، فيجعلُ وجوهَهم نورًا، وثيابَهم نورًا، يفزَعُ النَّاسُ يومَ القيامةِ ولا يفزعون وهم أولياءُ اللهِ لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون ".

ويُذكرنا الخالق في سورة " الكهف " بحكاية عن رسوله موسى "عليه السلام" والخضر العبد الصالح الذي علَّمه الله من لدنه (علم لدني)، وفتح له من الفتوحات والوصال ما لم يُعلمه لرسوله، حتى قال العبد الصالح لأحد أولى العزم من الرسل، وهو موسى "عليه السلام" : " **وكيف تصبر على ما لم تحط بيه خبرًا!** "، فهو أعلم منه.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)﴾ (الكهف).

ويقول الصوفي الزاهد متواضع الحال والهيئة :

" نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف"، وهذه اللذة المرادة في كلامه هي لذة ومتعة قراءة الكون وأقداره بِعلم وتمكين، واستبصار الحكمة من هذه الأقدار، وأنه لا شيء يحدث عبثًا أو يترك سدى، ليست الحوادث التي تهزّ الوجود عبثًا عابرًا، ولا الدماء التي تُراق بلا معنى مجرّد لونٍ على تراب الأرض؛ فكل قطرةٍ منها تسقط في موضعها من **النسق الإلهي للوجود**، لتؤدي وظيفتها في ميزانٍ لا يختل، وحكمةٍ لا تُدرك ببصرٍ بل ببصيرة.

إن للكون نظامًا دقيقًا، لا يراه إلا من تجرّد من غشاوة الظاهر، فصار ينظر إلى الأشياء بعين الروح لا بعين الجسد؛ هؤلاء أولو الأبصار، الذين لا يفصلون بين المظهر والمصدر، يرون يد الله تعمل في كل فعل، وصوته يتردد في كل حدث، ووجهه يتجلّى في كل صورة. هم الذين أدركوا أن الخير والشرّ وجهان لحركةٍ واحدة في مسار الوجود، وأن الألم ليس ضدّ الجمال بل شرطٌ له، وأن الدم حين يسيل لا يفقد معناه، بل يعود إلى الأصل الذي منه وُجد؛ فما من حادثةٍ إلا ولها نصيبها من الغاية الكبرى، وما من قطرة دمٍ إلا وتُكمل سطرًا في كتاب الحكمة الذي يكتبه الله

فـي قلـب الزمـان، فيقـول الحـق سـبحانه ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ (البقرة: ١٠٧).

فـالولي : هـو الـذي يكـون إلـى جانبـك فـي مجلسـك، والمـراد الأقـرب والأولـى فـي مناصـرتك والـدّفاع عنـك، أو المُتَـوَلي لأمـرك والقـيّمُ عليـه الـذي ينبغـي أن يجلب لك المنفعة ويصرف عنك السوء.

ويقـول الخـالق : " مـن عَـادَىَ لـي وليًـا فقـد آذنتـه بـالحرب، ومـا تقـرب إلـيَّ عبـدي بشـيء أحـب إلـيَّ ممـا افترضـت عليـه، ومـا يـزال عبـدي يتقـرب إلـيَّ بالنوافـل حتـى أحبـه، فـإذا أحببتـه كنـت سـمعه الـذي يسـمع بـه، وبصـره الـذي يبصـر بـه، ويـده التـي يـبطش بهـا، ورجلـه التـي يمشـي بهـا، وإن سـألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه "

ولكـي تحفـظ مقـام الولايـة، وتحـافظ علـى هـذا القـرب العـذب مـن الخـالق، لا بـدّ مـن صـيانة روحـك مـن شـوائب المـادة، وتنقيـة نيتـك مـن علائـق النـاس؛ فالقلـب الـذي يتوجّـه إلـى الله لا يليـق بـه أن يلتفـت إلـى نظـرات المخلـوقين، ولا أن ينتظر منهم مدحًا أو ثناءً.

" الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " وهم " الذين ءامنوا وكانوا يتقون " جزاؤهم الحماية والخير في الدنيا والآخرة، وأن " لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الاخرة " وجعل الله معاداة الأولياء من الكبائر التي تهلك صاحبها في الدنيا والآخرة إلا أن يتوب منها.

ولأن الصادق في حبه لا يبتغي غير وجه محبوبه؛ فكلما صفَت نيتك، وانعزلت أعمالك الصالحة عن أعين الناس، كلما ازددت قربًا ووصالًا، وتفتّحت لك أبواب من الفضل لا تُفتح إلا لمن أخلص.

" وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الي اجل مسمي " متاعًا في الدنيا أيضًا وليس الآخرة فقط.

أما الرياء — ولو كان خفيًّا كخيط في الظلام — فإنه يستنزف هذا الوصل، ويُعكّر صفو الإخلاص، ويجعل العمل لا لله وحده، بل مشتركًا بينه وبين الخلق، فتضعف البركة، وتخبو الأنوار، وتنغلق منافذ الإلهام.

فحافظ على نيتك كما تحافظ على قلبك، واجعل بينك وبين الناس حجابًا من الصمت والتجرّد حين تعمل لله، حتى لا يكون بينك وبين الله أحد؛ فما كان لله... دام، واتّصل، وارتقى، وما كان لغيره... انقطع وتلاشى.

قال قتادة : " إذا راءى العبد قال الله لملائكته : انظروا إليه كيف يستهزئ بي؟! "

فالإخلاص في الأعمال هو بين الخالق وعبده، وهو سرّ من أسرار الله استودعه الله تعالى في قلوب من اجتباهم لقربه وولايته كما قال رسول الله ﷺ مخبرًا عن الله عزّ وجلّ أنّه قال : " **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، وأغنيت عبدي بالسرّية والإخلاص** "

وقال **الفضيل بن عياض** رحمه الله : " لو علمتُ أن الله قد تقبّل مني سجدةً واحدة، ما كان غائبٌ أحبّ إليَّ من الموت "

في لحظات الانفراد بالربّ، لا يكفي رفع اليدين أو طول الكلام، بل يجب أن يحضر القلب والروح؛ الإخلاص هو ما يصفّي الدعاء من الشوائب، والخشوع هو ما يفتح الأبواب المغلقة للرحمة؛ الدعاء الصادق ليس مجرد طلبٍ، بل هو **صلة بين القلب والخالق، وفهم أن الإجابة تأتي في وقت الحكمة، وأن الصبر على ما لم يُعطَ هو جزء من الطاعة.**

ومن ترك الرياء وغرور النفس، وعاش لحظاته مع الله بصدق، يجد قلبه يفيض سكينة، وروحه ترتوي من نور لا ينضب.

إن لحظة الخشوع، حين يذوب فيها الإنسان في حضرة الحق، أقوى من آلاف الكلمات الموجهة بلا حضور، وأقرب إلى الإجابة، لأن الله لا يقيم للحروف وحدها وزنًا، بل للقلب الذي يرفعه. كل كلمة صادقة، وكل لحظة إخلاص، هي باب لسكينةٍ أبدية.

الروح لا تعرف الإجابة إلا حين تصغي، والقلب لا يفتح أبوابه إلا بالخضوع الصادق.

الإخلاص ليس مجرد فعل، بل هو **تحرّر النفس من ظلال الرياء، وإتاحة وجودها لله وحده**؛ كل دعاء يخرج من فم لا يحضر قلبه، كغيمةٍ بلا مطر، لا يُروي الأرض ولا يسقي الروح.

إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، فالتغيير الحقيقي يبدأ داخليًا، حين تتخلى النفس عن تصوراتها الزائفة، وحين تتوقف عن الرغبة في مدح الناس أو فرض صورةٍ على الذات، ويصبح كل فعل وكل دعاء خالصًا لوجه الحق. في تلك اللحظة، يصبح اللسان مرآة للقلب، والكلمات صدى لما اختلج في الروح، ولا يبقى أثر للرياء، ولا ظل للغرور.

الخشـوع إذن لـيس مجـرد ميـل الجسـد أو طـول العبـادة، بـل **سـكون الـداخل وانصـهار الإرادة فـي مـا يريـده الله**، وحـين يختبـر القلـب ذلـك الانصـهار، يشـعر بأن كل دعاء، مهما صغر، أعظم من ألف كلمة بلا حضور.

فلـيكن الإنسـان صـادقًا فـي داخلـه، واعيًـا بمـا يطلبـه، مـدركًا أن التغييـر يبـدأ بـه، وأن الاتصال بالخالق هو ما يعطي للحياة معنى، وللدعاء حياة.

أمـا العقـل البشـري، بمـا هـو عليـه مـن تركيبـة ماديـة وكيميـاء ومحدوديتـه بالأجسـام بـالإدراك المـادي، فهـو بطبعـه يطلـب البـراهين والحجـج، ويتعثـر حـين يُطلـب منـه الإيمـان بمـا لا يـرى أو يُقـاس؛ فـإذا قيـل لـه إن هنـاك وجـودًا غيـر مخلـوق، ابتـدأ سلسـلة لا نهائيـة مـن التسـاؤلات : مـن خلـق هـذا؟ ومـن خلـق خالقه؟

كأنـه يتبـع خطًّـا عـدديًا لا نهايـة لـه، لا يعـرف كيـف يتوقـف؛ ذلـك لأن برمجـة العقـل، وفـق منطقـه المحـدود، لا تتصـور شـيئًا بـلا بدايـة، ولا وجـودًا بـلا واجـد؛ لكـن الله، جـل جلالـه، لا تنطبـق عليـه قـوانين العقـل المخلـوق، فهـو لـيس "شـيئًا" لنُسقط عليه سؤال : من خلقه؟

بل هو الخالق المطلق، الأزلي، الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء.

وسؤال " من خلق الله؟ " — على ما فيه من ظاهر التحدي — هو سؤال فاسد منطقيًا، لأنه مبني على افتراض أن الله مخلوق، وهو ليس كذلك، بل هو الأصل، والنقطة التي يبدأ منها كل شيء، ولا يُسبق.

وهنا يقف العقل، ويتوقف عن التصور، لأنه قد بلغ أقصى حدوده، فلا بد أن نتيقن بالعقل والمنطق أن العقل ذاته له حدود في الأمور غير المادية ولكن يستدل عليها.

وتمامًا كما في الفيزياء هناك مجالات وقوى لا تُرى، ولا تُقاس مباشرة، ولا تُستخدم كنظام إسناد، ومع ذلك نؤمن بوجودها، لأن آثارها ظاهرة في كل ما حولنا.

كذلك الإيمان بالله – وإن لم تدركه الحواس – يترسّخ في القلب من خلال آثاره في الخلق، ونواميس الكون، وسُنن الحياة.

فما نعلمه من الظواهر الدنيوية، لا يعدو قطرة من بحار علم الله، وآثاره في الغيب والخفاء أعظم من كل ما نراه ونفهمه.

إن جهلنا بلغة الطيور، أو أصوات الحيتان، أو تواصل الأشجار، لا ينفي وجود عوالمها، ولا يحدّ من اتساع خلق الله.

وكأننا، بعقولنا المحدودة، نحاول أن نقيس قدرة الخالق بمسطرة الإنسان، وننسى أن أعيننا لا ترى إلا ظاهر الأشياء، وأن الله، سبحانه، أوسع من أن يُحدّ بعالمنا، أو يُقاس بعجزنا.

وفي كتابه " رأيت الله " يقول : " ولو سألنا قلوبنا عن الله لأغنتنا عن كل ذلك الجدل والتدليل، فهو حاضر في القلب مشهود للقلب على الدوام.

هو الوحيد الصخرة التي نلقي إليها المراسي في بحر القلق والتغيرات والتقلبات، حيث كل شيء بفطرتنا النقية وإحساسنا العميق.

وسوف نرى في ومضة خاطفة أنه لا وجود لشيء إلا له هو، وأنه هو الحاضر، وأن كل ما نرى هي تجلياته وأفعاله، وكل ما نستشعر من عالم الخفايا والغيب هي ذاته، وأنه هناك دائمًا، وأنه كان هناك وسيكون هناك، وأنه الحضور المطلق الممتد المستمر في أعمق الأعماق منذ لا زمان ولا مكان إلى حيث لا زمان ولا مكان، وأن حياتنا لها معنى لأنه هناك، وأن للوجود حكمة لأنه هناك؛ وأننا نحب لأنه هناك؛ وأننا نطلب العدل والحرية والكرامة لأنه هناك، ونحارب الظلم والجور والعدوان لأنه هناك؛ وأننا نضحي ونسارع إلى الشهادة والفداء لأنه هناك.

هو دائمًا هناك يسمع ويرى "

ولهـذا وبسـبب محدوديـة العقـل فـي إدراك الأمـور الغيبيـة، أرسـل الله الرسـل ليعلمـوا النـاس ويخبـروهم بـالكون ومنهجـه الـذي يحتـاج العقـل إلـى تعليمـه، وأقـام معهـم الحجـج والبـراهين العقليـة وآيـات ليثبتـوا للنـاس صـدق مـنهجهم وأخبـارهم عن الخالق، وأنهم رُسل صادقون أُرسلوا من قبل الخالق.

فالعقـل مسـئول عـن الإيمـان والاقتنـاع بوجـود الـروح والأمـور الغيبيـة وعـدم إنكارهـا ولـو لـم تُحـس بـالحواس، ومـن ثـم الوصـول إلـى الخـالق حتـى بـدون مساعدة خارجية.

بالتأمـل يسـتطيع العقـل إدراك واستشـعار وجـود الخـالق والتواصـل معـه كمـا فعـل بعض الرسل وهم مجرد بشر قبل نزول الرسالة عليهم.

فالتواصـل مـع الخـالق يكـون عـن طريـق التأمـل والتعقـل والخلـوة مـع الـذات لتصـل إلـى أصـلها وتستشـعر وجـوده، وإخفـاء أعمـال الخيـر قـدر المسـتطاع عـن الآخـرين، فهـذا يزيـد الصـلة مـع الخـالق وتستشـعر أنـه لا أحـد يعلـم مـا فعلـت سـوى نفسـك وخالقـك، فـلا يجـول حتـى بخـاطرك أحـد أثنـاء خلوتـك وعباداتـك، فتحـافظ علـى علاقتـك معـه ومراقبتـك لـه، فـالخلوة والعبـادات السـرية تقـوي فـي داخلك استحضار وجود الله.

فمحمد ﷺ كان دائم الخلوة بنفسه بعيدًا عن الناس في غار حراء، وهذا الغار هو فجوة في الجبل بعيدة عن الناس قبل البعثة، وهو المكان الذي تواصل الله معه فيه عن طريق جبريل " عليه السلام " ونزوله بالقرآن عليه في هذا الغار أول مرة، وأولى آيات القرآن نزولًا كانت " اقرأ باسم ربك الذي خلق "

وكذلك فعل إبراهيم " عليه السلام "، حين تأمل ملكوت السموات والأرض، يراقب الكواكب والأفول، يبحث عن ربه بعقله، ويتأمل بعينه وبقلبه، حتى قال بعد رحلته التأملية الطويلة : " إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين "؛ فهكذا تكون بداية الطريق: تأملٌ، ثم يقين، ثم اتصال.

ويقال في المسيحية إن المؤمن عندما يكون مع الله يكون مملوءًا من الروح القدس، وهو الذي يوجهه ويساعده.

وفي القرآن عن الروح : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ (**الإسراء**)

لقد كان إرسال الله للرسل والأنبياء، وإنزال الوحي عليهم، رحمةً بالناس ومَعونةً لهم على الوصول إلى ربهم، هدايةً لمن ضلّ، وتبصرةً لمن تحيّر،

ومنهجًا قويمًا تستقيم به الحياة، ويُفرّق فيه بين الحق والباطل. ولأن العقل هو الأداة التي وهبها الله للتمييز، فقد أيد الله رسله بالحجج والبراهين، فجاءوا بالآيات الدالة على صدقهم، مراعاةً لطبيعة العقل، وطريقة إدراكه للأمور.

فالعقل مأمور أن يعمل، ويقيّم، ويبحث دون عناد أو استكبار، وغير مقبول منه أن يُسلّم تسليمًا أعمى دون اقتناع، ولا أن ينكر عن جهل أو تجاهل ما جاء به الرسل من دلائل، بل عليه أن يُصدّق، متى ثبت له صدقهم، وأن يُقرّ بأنهم مُرسلون من عند الله، فإذا بلغ هذه المرحلة من التسليم العقلي، جاء دور الإيمان بالغيب، وقبول ما لا يُدركه العقل من الغيبيات، تسليمًا وثقةً بالخالق، لا ضعفًا ولا خضوعًا لغير بيّنة.

فدور الرسل، إذًا، هو أن يدلّوك على الطريق، ويأخذوا بيدك إلى باب الخالق، ثم تبقى أنت ومسيرتك إليه، فيكون تواصلك مع ربك مباشرًا، وتعرف طريقك إليه، وتسلكه بثبات ويقين.

وكثيرٌ من القصص، والحجج، والبراهين، والمعجزات، والتحديات، تناقلتْها الأجيال عن الأولين، وحكاها الرسل عن سلفهم،.تُخبر عن هلاك الأقوام الذين كذبوا بآيات ربهم، ونجاة المؤمنين الذين آمنوا معهم.

فمن هذه المعجزات، ومن دون حصر؛ انقلاب العصا حيةً في يد سيدنا موسى "عليه السلام"، وانفلاق البحر أمامه ليفرّق الطريق.

وكون النار بردًا وسلامًا على سيدنا إبراهيم "عليه السلام"؛ وإحياء الموتى وشفاء المرضى بيد سيدنا عيسى "عليه السلام".

أما معجزات سيدنا محمد ﷺ، فهي كثيرة، منها انشقاق القمر، ونبْع الماء من تحت أصابعه، وغيرها مما تواترت به الروايات، وهي امتدادٌ لمعجزات إخوتِه من الأنبياء والمرسلين.

وعلى جانب آخر، ثمة معجزة معنوية عقلية، هي القرآن الكريم، التحدي العظيم الذي أطلقه الخالق على مر العصور،كما جاء في سورة الإسراء :

﴿ قُل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾

ويحكي الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه في سورة البقرة :

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهِت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾

هـذه المعجـزات والحجـج تظـل منـارًا لكـل مـن يبحـث عـن الحـق، شـواهد تؤكـد صـــدق الرســـل، وتـــدعو إلـــى التأمـــل والتفكـــر، فبـــين المعجـــزات الحســـية، والمعجزات العقلية، يُفتح باب الإيمان واسعًا لكل قلبٍ متيقّن.

يقـول الفيلسـوف اليونـاني "**سـينكا**"، كمـا جـاء فـي كتـاب "**رسـائل مـن المنفـى**" عـن علاقـة الـروح والجسـد : " **ويحتـاج الجسـد إلـى التعامـل معـه بـبعض الصـرامة لمنعـه مـن التمـرد علـى الـروح** "، واعتبـر أن الـروح هـي الحـاكم الآمـر والناهي.

ومـن أدوار الـروح فـي هـذه الـدنيا أيضًـا؛ الشـهادة، وهـي أن تشـهد علـى أفعالنـا فـي الـدنيا، وإدراك حقيقتنـا مـن خـلال التجربـة الدنيويـة، وتفاعلنـا معهـا، ومـع أقدارها التي تمضي بنا.

فالمعرفـة الحقـة لا تتحقـق إلا بـالإدراك والاختبـار، فـلا نـدرك معنـى النـور إلا إذا رأينـا الظـلام، مهمـا أخبرنـا عـن أنفسـنا، وعـن عظمتنـا، وعـن كرامـة الله لنـا، والخير الفطري الذي بداخلنا، لا نعترف ولا نتأكد من ذلك إلا بالتجربة.

ولـذا كانـت الـدنيا هـي ميـدان الاختبـار، وبهـا نحيـا الشـهادة علـى أنفسـنا، ونشـهد بأفعالنـا وحقيقـة وجودنـا، كـي نرتقـي فـي الفهـم، ونتعمـق فـي الـوعي، ونصـل إلـى نور الحقيقة التي لا تُرى إلا بعد عبور الظلمات.

ويقال : " **لا تستطيع أن تكون دون أن تُختبَر** "

فارتطام الروح بالعالم المادي يجعلها تتعرف على نفسها وضعفها وصفات خالقها التي تتجلى فيها، فهي من أمرِهِ " قل الروح من امر ربي " فهذا يجعلها دائمًا تحن إلى أصلها وترجع إليه، فنحن نشعر بالراحة والسكينة عندما نتعبد في الخلوات وفي الطقوس الدينية أو الروحانية.

فالروح باقية أبدية، وحتى بعد فناء الجسد تتحرر الروح منه وتكمل مسيرتها كما كانت قبل الدنيا لأغراض أخرى ولكن في عالم يسمى "البرزخ"، فالروح تواجدت في الأزل قبل الدنيا وقبل أن تمتلك الجسد، فالجسد بالنسبة له كوسيلة مواصلات في مرحلة الحياة الدنيوية.

فقوله تعالي : ﴿ **وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ دليل أقامه الله على كل الأنفس أنه أقرها وأشهدها وهي لم تولد بعد، وهي في ظهور آبائها وقبل أن تُنقل حتى للأرحام، فأجاب الكل : "**بلى شهدنا**"، وهذه إجابة منطقية على الإحساس والدافع الفطري لدى الفرد بوجود إله واحد خالق " **الحقيقة أمر فطري وبداخلك** "

لغة الروح هي المشاعر، والإنصات إليها هو مفتاح رؤية الوجود والإحساس بخالقه في كل زمان ومكان، فالله موجودٌ دائمًا، يلازمك حيثما كنت، حتى وإن حاولت الانشغال بهموم الدنيا وزخم الحياة، فوجوده لا يفارقك، ولا يمكنك الهروب من حقيقة وجوده.

هو ليس له هيئة تُرى أو قالب يُخيَّل، ومع ذلك، كل منا يراه ويشعر به بطريقته الخاصة، بحسب ما يُطاق من علمٍ أو ابتلاءٍ أو إبداعٍ أو تجربة؛ فالله يعلم خليقته، وهو اللطيف بهم والخبير بحالهم، وهو ليس محكومًا بشكل أو صورة، ومع ذلك يُدرك وجوده في داخلك قبل أن تراه خارجك؛ فمعرفتك لنفسك، والسلام معها، هما الطريق الذي يقودك إلى معرفته.

يقول الإمام العارف محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، من إلهاماته وفتوحاته عن الله تحت عنوان " **ما يقوله الله لعبده** " : " **أنا يُستدل بي ولا يُستدل عليَّ** "، وتُوضح فيقال : " **لأني أنا الحقيقة، أنا البرهان الذي أبرهن على الأشياء ولا تستطيع هي أن تبرهن عليَّ** "

فيقول الحق سبحانه : " **لم تسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن** "

فـالإدراك الحقيقـي لا يُولـد مـن ضـجيج الخـارج، بـل مـن صـمت الـداخل، مـن الإصـغاء للفطـرة، لـذلك الحـدس النقـي الـذي يسـكن أعماقـك، ولمـا تهمـس بـه مشاعرك في لحظات الصفاء.

حـين يُـوازن الإنسـان بـين ماديّتـه وروحانيتـه، حـين لا يُغفـل جسـده ولا يُقصـي روحـه، يبلـغ صـفاءً فريـدًا بعـين، يُمكنـه مـن رؤيـة الحيـاة والكـون كمـا همـا نقيـة؛ وعقـلٍ شـاهد، وروح مبصـرة، ومـن يصـل إلـى هـذا النقـاء يصـير مـن أولـي الأبصـار، الـذين لا تخـدعهم المظـاهر، ولا تضـلهم الأصـوات الزائفـة، لأنهـم رأوا الحقيقة من الداخل أولًا، فأدركوها في كل شيء حولهم.

أمـا مـن يُهمـل صـوته الـداخلي، ويغفـل نـداء روحـه، فهـو عرضـةٌ للضـياع فـي الزحـام، ومصـدرٌ دائـم للقلـق، ومـأوىً للإحبـاط لأن الفقـد لا يكـون فـي الخـارج، بل في انقطاع الصلة مع الذات.

فيقـول (نيـل دونالـد والـش) : " وظيفـة الـروح هـي الإشـارة إلـى رغبتهـا ولـيس فرضـها، ووظيفـة العقـل هـي الاختيـار مـن بـين بدائلـه، ووظيفـة الجسـم هي تنفيذ هذا الاختيار "

ويقـول (ب. ك. ناريـان) فـي كتابـه " فلسـفة اليوجـا " : " إن الانضـباط وكـبح الـنفس يوصـلان التلميـذ إلـى نيـل العـلا، كمـا يهبطـه الانغمـاس فـي

الحياة الدنيا إلى أدنى الدرجات، ويجب على الإنسان أن يثقف نفسه جسمًا وعقلًا وروحًا كي يلاقي ربه "

روى البخاري أن النبي ﷺ مَرَّ بحائط من حيطان مكة أو المدينة، فسمع صوت إنسانين يُعذَّبان في قبورهما، فقال النبي : « **إنهما لَيُعذَّبان، وما يعذبان في كبير! » ثم قال: « بلى، كان أحدهما لا يستتر من بَوْلِه، وكان الآخر يمشي بالنميمة »**

وزاد الإمام أحمد " رضي الله عنه " : " **ولولا تمرُّغ قلوبكم وتزيُّدكم في الحديث لسمعتُم ما أسمع** "؛ ما يدل على وجود الروح في الدنيا وحتى بعد الموت، وأيضًا كلما صفت الروح وترقَّت عن المادة، وصلت إلى ما هو أعلى من الدنيا.

***

" أفعال الإنسان "

يخضع الإنسان بشكل كامل إلى إرادته التي تكمن بها كل أفعاله وتحركاته وإقباله على الأشياء، لذا جاء في الحديث النبوي : " **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى** "

فالعقل والتفكير والحركة ما هي إلا وسائل من وسائل تحقيق الإرادة البشرية، فأنت تريد أولًا، وبعد ذلك تبدأ باستخدام عقلك وجوارحك لتحقيق إرادتك، فكل أفعالك في الدنيا تخضع لإرادتك أولًا، وحتى عند إجبارك بقوة خارجية على أمر معين قد تفعله دون إرادتك، فتظل إرادتك ثابتة لا يمكن تغييرها ولا حتى بالإجبار، على عكس الأفعال والحركات، فلا يمكن إجبارك على حب شيء أو كرهه، أو إجبارك على تغيير نيتك نحو شيء ما.

فالإرادة حرة ومبدعة لا يمكن السيطرة عليها، وهي شيء غير محسوس يصعب التعرف عليه، فيقول (**المتصوف أبو البركات البغدادي**) عن الإرادة إنها : " **أظهر من كل ظاهر وأخفى من كل خفي** "

فحتى الخير والشر والحروب والأعمال الخيرية ما هي إلا صور لإرادتنا وأفعالنا وتفاعلنا مع الكون ومع الأسباب، وهذا التفاعل من خير وشر وفساد وإصلاح ما هو إلا دليل على الحرية التي خُلق بها الإنسان.

فالإرادة تكمن في الضمير، ولا يمكن لأي شيء أن يحول بين الإنسان وبين ما يضمره في نفسه، فهي عين الحرية.

وقد يشرع الإنسان في فعل شيء ما، ثم بعد البدء فيه ينصرف عنه، فهي إرادته، أراد في البداية فعل شيء معين وبعد فترة تغيرت إرادته، فهو حر.

فالإرادة هي الحرية والإبداع الخاص بالإنسان التي تُظهر معدنه ونيته، فكامل الحرية للإنسان تكون في إرادته داخل ضميره، وتبدأ هذه الإرادة في التنفيذ والتعبير عن نفسها، ولكن تجد المعوقات سواء الجسدية أو المجتمعية أو الكونية أو غيرها من المعوقات التي تحكم على الفرد سواء بتنفيذ إرادته أو كبتها، ولكن آخر ما تلجأ إليه إرادة الإنسان هو كبت نفسها وحبسها في الداخل.

فالإرادة دائمًا ما تستخدم أدواتها لتنفيذ المشيئة الخاصة بها، ومن أهم أدواتها هو العقل الذي يحاول أن يسخر هذه المعوقات بشكل أو بآخر لتحقيق مراده، سواء بعلمه بالقوانين أو بالخدع الذي يقوم به، أو محاولة التوافق بين إرادته وفروض العالم الخارجي عليه.

ولهذا يقول النبي ﷺ : " **إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه** "

فحساب العبد يكون على أفعاله وإقدامه الداخلي على فعلها الصادر عن نيته التي لا يعلمها على أكمل وجه سوى خالقه.

فيقول **(مصطفى محمود)** في كتابه **(علم الأسرار)**، بعد أن أثبت بالدليل أن الأمر كله لله : " ويبقى بعد ذلك السؤال الكبير : إذا كان الله منفردًا بالقضاء والقدر والتصريف والفعل والرزق والضر والنفع والهداية، وإذا كان الأمر كله لله، وليس لنا من الأمر شيء، فماذا بقي لنا؟

يقول العارفون : بقيت لنا النية والمبادرة وعليها نُحاسَب، وآيات كثيرة من القرآن جعلت فعل الرب مؤسسًا على مبادرة العبد وعلى علمه بقلبه ونيته كقوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾، وقوله : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾، وقوله : ﴿ **ولو علم فيهم خيرًا لأسمعهم** ﴾، وقوله : ﴿ **فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم** ﴾، فالقلب إذن هو عمدة الحكم، وعليه يتأسس الفعل الإلهي، ولهذا جعل الله قلب الإنسان حرًا، لو اجتمعت عليه سلطات العالم ما استطاعت أن تغيره كرهًا، ولو تحالف الحديد والنار والسجن والتهديد على سجين في زنزانة انفرادية لما استطاعت تلك القوى مجتمعة أن تجعل هذا السجين يحب ما لا يحب أو يكره ما لا يكره، فربما استطاع السجان أن يُقهر سجينه على التوقيع على ورقة بالإكراه، وربما استطاع أن يرغمه على تقطيع الحجارة وأكل الحصى، وربما استطاع أن يقطع لسانه وينزع جلده، ولكنه لا ولن يستطيع أن ينزع ذرة كراهية من قلبه أو يبدل عواطفه قهرًا، فهناك في أعمق الأعماق نفس أعتقها الله من كل القيود ولا سلطان لأحد

عليها، حتى الشيطان لا يستطيع أن يدخلها إلا بدعوة كما قال تعالى : "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين "...

فاختلاف أحوال الناس من ظالم ومظلوم ومفترٍ ومُفترى عليه، وتحول شخص من صالح لطالح، ما هي إلا صورة من صور الحرية التي بالمنطق والاستنتاج العقلي يتوجب الحساب عليها.

وهنا تتجلّى عظَمة الإرادة الإلهية في تلاقي اختيار الله مع حرية القلب البشري؛ فداخل الإنسان عالم آخر من الإبداع والخيال والحرية، عالم تتراقص فيه الرغبات النقية والطموحات الخفية، وأحيانًا يطفو هذا العالم الداخلي على الواقع الخارجي، فتظهر الدهشة والمعجزات البشرية، من الاكتشافات العلمية، إلى قوة التغيير والإرادة التي أظهرها التاريخ، وتُثبت أن حرية الإنسان وصدقه مع ذاته يمكن أن تصنع آثارًا عظيمة، حين تتناغم مع حكمة الله ومشيئته، فالنية شيء مقدس جعلها الله داخل كل منا، لا يمكن لأحد الاطلاع أو السيطرة عليها، وهي التي على أساسها يقوم الإنسان بأفعاله، وهي التي يطلع الله عليه فيجدها تسعى للخير فيعينها عليه ويهيئ لها الأسباب على ذلك، فيقول الله تعالى للمؤمنين المقاتلين : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** ﴾

وأيضًا ينظر الله إلى نية الشخص، فيرى منه الشر والسعي عليه فيعينه على ذلك، فيقول تعالى : ﴿ **في قلوبهم مر فزادهم الله مرضا** ﴾

ويقول تعالى في سورة **(الصف)** : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾

﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾

﴿ **ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾

منحنا الله الحرية، وزوّدنا بالشهوات، ورسم لنا منهجًا بيّنًا، لنجتاز به اختبار الوجود؛ لم يُجبرنا، بل أطلقنا في ساحة الحياة، خلفاء في الأرض، نحمل بذور النور والظلمة، نخوض التجربة بأنفسنا، لنتعرف على ذواتنا، ونكتشف خالقنا، لا عن طريق السمع فقط، بل عبر المعايشة والاختيار؛ فكل خطوة نخطوها، وكل قرار نتخذه، هو شهادة نكتبها بأفعالنا، لا بأقوالنا.

وحين تنتهي الرحلة، ونتحرر من قيود الجسد ومعوقاته، نعود إلى موطننا الأصلي، ونقف أمام الحقيقة، نرى نتائج إرادتنا، ونشهد على أنفسنا شهادة رؤيا ويقين، لا يبقى معها شك ولا مجال لإنكار.

ويقول الطبيب النفسي **(فيكتور فرانكل)** في كتابه **(الإنسان والبحث عن المعنى)** : "**كل شيء يمكن أن يؤخذ من الإنسان، ما عدا شيء واحد؛ حريته في اتخاذ موقف محدد في ظروف معينة، حريته في اختيار طريقة الخاص** "

الإرادة درجات أدناها الشهوة من أكل وشرب وجنس، ثم درجة أعلى تتمثل في الحب والعاطفة ثم تسمو وتسمو حتى تصل إلى حب الخير والأعمال الصالحة، وترقى حتى تصل إلى الروح الملائكية وتصل إلى الخالق ﴿ **والي ربك فارغب** ﴾

فالإرادة الصغرى هي الاحتياجات الجسدية للإنسان، والإرادة الكبرى احتياج الروح، وهو الوصول للخالق.

***

العدل

بِمقتضى ما نراه حولنا من نظامٍ مُحكمٍ، وتناسقٍ دقيقٍ في حركة الأسباب والقوانين التي تسري في الكون والفضاء، يرشدنا العقل السليم إلى ضرورة وجود عدلٍ إلهيٍّ مطلق، إذ ليس من المعقول أن يُحكم هذا الوجود بكل ما فيه من دقة وتقدير، ثم يُترك الإنسان – وهو جزء منه – دون حسابٍ أو ميزان.

فالقادر على ضبط نظام الأفلاك ومسار الذرّات لا يمكن أن يسمح بخروج أحدٍ عن سننه دون جزاء؛ وإن أفلت الظالم أو العاصي من عقابٍ في هذه الدنيا، فإن منطق العقل والعدل معًا يقتضيان وجود زمانٍ آخر ومقامٍ آخر تُعاد فيه الموازين إلى نصابها، ويُؤخذ كلٌّ بما كسب من خيرٍ أو شرّ.

ومن سار على نهج الحق، ووافق فعله نظام الكون الذي أودعه الخالق في كل ذرةٍ من الوجود، واهتدى بهدى هذا المنهج، فصارت أعماله منسجمة مع سنن الله في الخلق، وجاهد نفسه وشهواته، وصبر على المشقّات ليحفظ ميزان العدل والرحمة بين الناس – فإن من العدل والمنطق أن يُكافأ على قدر هذا الصبر والإخلاص.

فكما أن الكون يسير بدقةٍ من الذرّة إلى المجرة، ومن الخلية الأولى إلى النظام الشمسي، فكذلك العدل الإلهي شاملٌ لا يختلّ، إذ هو الذي يُقيم

التوازن بين الحركة والسكون، بين الحرية والمسؤولية، وبين ما يراه الإنسان بعينه، وما يدّخره الله له من حكمةٍ وراء الغيب.

فالخالق الذي أوجد كل ذلك وخلق العقل لا بد أن يكون هناك أبعاد ورؤى فوق استيعاب وتصور العقل، حتى مكافأته للصالح الذي اتبع المنهج الذي وضعه الخالق لصالح الكون ولصالح المخلوقين عليه، وحافظ على استقامة الأمور كما أمر، وعقابه للمنحرف عن منهجه هذا، أيضًا هذا العقاب على قدر عظمته وقدرته، واللذان هما أعظم من استيعابنا وتصورنا كبشر.

فيقول الله في وصف الجنة وجزاء الصالحين كما جاء في الحديث، قال الله:

" **أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر** "، فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾

وكما ذكرنا، فإن اختلاف أحوال الناس بين ظالمٍ ومظلوم، ومفترٍ ومُفتَرى عليه؛ هو من دلائل حرية الإنسان وتفاعله مع الأسباب دون تسييرٍ قهري أو إجبارٍ مطلق، إذ اختار الله لعباده أن يكونوا شركاء في حركة الأسباب، ليظهر في أفعالهم أثر النية والإرادة والاختبار.

لكن من سنن الله في خلقه أن الظلم لا يستقرّ في الكون، لأنه يخلّ بتوازنه الذي أودعه الله في كل شيء، فالكون قائم على نظام دقيق، والعدل فيه ليس مجرّد قيمةٍ أخلاقية، بل قانون كونيّ تحفظ به الحياة انسجامها، وتستقيم به

حركة الوجود، ولهذا، فإن من حكمة الله وعدله أن الظالم لا بدّ أن يُؤخذ ببعض جزائه في الدنيا قبل الآخرة، كي لا يفسد النظام الذي يسير بأمره، فلو تُرك الظلم دون أثرٍ أو عاقبة، لاختلّ ميزان الكون، ولعمّت الفوضى في النفوس والأسباب.

ومع ذلك، فإن العقاب الدنيوي ليس هو تمام العدل، فكم من ظالمٍ نجا في الظاهر بعقاب غير مرضٍ ومشفٍ للمظلوم، لذا أكّد العقل والشرع معًا أن هناك يومًا آخر تُوزن فيه الأعمال بميزانٍ لا يميل ولا يخطئ، كما قال تعالى: ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون** ﴾

فعدالة الله شاملةٌ لا يضيع فيها مثقال ذرة، تمتد من سننه الجارية في الدنيا، إلى حكمه المطلق في الآخرة؛ فهو العدل الذي تحفظ به السماوات نظامها، وتحيا به الأرواح في طمأنينة اليقين.

﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾

فخلق الله الإنسان وخصّه بالعقل، وجعل له سلطانًا على ما دونه من المخلوقات، ومنحه حرية الاختيار والتصرّف في حدود ما أُتيح له من الأسباب.

ومن مقتضى هذه الحرية، وبداهة الفطرة والعقل، أن تكون هناك عدالةٌ تُقابلها ومسئوليةٌ تُحاسَب عليها، فليست الهبة دون حساب، ولا التفضيل دون امتحان.

فمن أحسن استخدام ما أُوتي من عقلٍ وموهبة، وصبر على البلاء، وتمسّك بالمنهج الذي أراده له المدبّر الأعظم، كان أهلًا لأن يُجزى بعدلٍ يتناسب مع إخلاصه وتحمّله؛ إذ إنّ الحياة، بما فيها من إخفاقٍ وأذى وجحودٍ من الناس، ليست عبثًا، بل ساحة اختبارٍ تتجلّى فيها معاني الصبر والنية والعمل.

وكما يقول **(لويد سي. دوغلاس)** : " **بين الحين والآخر، ستتمكّن من أن تضع الأمور في نصابها الصحيح، وعندما تفعل ذلك ستدرك أن كل الإخفاقات التي مررت بها كانت عادلة، لأنها قادتك إلى ما أنت عليه الآن**"

وهكذا، فعدالة الله لا تظهر فقط في النتيجة، بل في المسار نفسه، في كل تجربةٍ شكلت وعينا، وكل امتحانٍ أيقظ فينا جوهر الحرية التي وُهبنا إياها؛ وكذلك الحساب على الحرية من غرور وتبختر واغترار بمواهبك التي حُبيت بها عن غيرك واستغلالها في تحقيق شهواتك دون اعتبار للمنهج أو الحفاظ على سير الحياة بشكل سليم يحافظ عليها وعلى من فيها.

حين تعلم أن عمر الدنيا، بكل ما فيها من ضجيجٍ وأحداث، لا يساوي أمام يوم القيامة سوى ثانيتين أو ثلاثًا من زمنٍ ممتد، تدرك أن العدل الإلهي محيطٌ لا يغيب عنه شيء، وأن ما يبدو لنا ضائعًا في لحظةٍ عابرة هو محفوظ في سجلٍّ لا يضل ولا ينسى.

قال تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾

ففي يومٍ واحد من أيام الآخرة، يُقدَّر الزمن بخمسين ألف سنة من سنوات الدنيا، وفي ذلك اليوم، حين يُسأل الأشقياء : " **كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟** "

فيقولون : " **لبثنا يومًا أو بعض يوم فاسأل العادّين** "

إذ تذوب أعمارهم في هول المشهد، ويبدو ما عاشوه من زمنٍ على الأرض مجرد ومضةٍ في ظلام الأبدية.

فلو لم يكن هناك جزاء لمن التزم بمنهج الله، وكبح شهواته، وفضّل رضا خالقه على راحته، فما معنى التكليف إذن؟ ولماذا يُضحّي المخلص بما يحب، ويصبر على الأذى، ويجاهد نفسه في سبيل الحق؟

أفَيَستوي عندك من قتل وأهلك وأفسد، ثم مات في دَعَةٍ على فراشه، بمن عاش يعمر الأرض، ويصلح بين الناس، ويتحمل الأذى صامتًا طاهر القلب؟

أيمكن أن يتساوى من ظلم ومن ظُلم، من افترى ومن صبر، من خرّب ومن أصلح؟ كلا، لا يستويان...

فالعدل الإلهي هو الناموس الأعظم الذي يقوم به الكون، وإن غاب عن عيوننا لحظة، فإنه قائم لا يغيب، ينتظر وقته الذي لا يُقدّر بزماننا، بل بميزان الحقّ الذي لا يميل.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾

فالفطرة هي التي تجعلنا نتمهل ونفكر قبل اتخاذ القرار، وتجعلنا نراقب أفعالنا ونشعر بالراحة أو الندم عليها، وهذا العدل الفطري من تواصل وتجلي الخالق على الإنسان، فالفطرة دائمًا منسجمة مع النظام الكوني.

جاء في كتاب الدكتور **(مصطفى محمود)؛ (الإسلام في خندق)** :

" لو لم تكن هناك آخرة لوجب أن توجد، فدنيانا هذه استولى عليها الغشاشون والمرتشون والكذابون والمنافقون والقتلة، وعلا فيها الأدنياء، وارتفع الأخساء، وحكم السفاحون، وفاز الدجالون، وتقلد المداهنون النياشين والأوسمة.

أما الطيبون فلزموا الخنادق والكهوف ولاذوا بالجدران يدافعون عن لقمتهم الصعبة، واعتزلوا شوارع النجاح القذرة، وتجنبوا أوحال الشهرة ومزالق الجاه "

المدى العقلي [الشهادة – الغيب]

يقول **(ب. ك. نارايان)** في مقدمة كتابه **(فلسفة اليوجا)** : **" إن مجرد العقل وحده لا يستطيع أن يحيط بكل ما في الكون من أسرار، لأنه يعتمد على الحواس فقط في إدراكه، لكن ممارسة التأملات الروحانية عمليًا تفتح آفاقًا جديدة واسعة لم تكن في حسبان الإنسان تحقيقها قبل الممارسة "**

العقل هو الأداة التي وُهبت للإنسان ليُميّز بها بين الدليل والادّعاء، وليختبر بها الحجج والبراهين بعينٍ مبصرة لا مقلّدة؛ فهو آلة التفكير التي بها يُدرك الإنسان قوانين الكون، وينفذ إلى جوهر الأشياء، فيرتقي بالمعرفة من ظاهر المادة إلى عمق الروح؛ إذ إنّ الكون، في جوهره، مزيجٌ من مادةٍ تُدرَك بالحواس وروحٍ تُستشعَر بالبصيرة، فالمادة سبيل العقل، والروح سبيل القلب، ومن توازن الاثنين يتولد الفهم الحقّ، الذي يقود إلى معرفة الخالق من خلال آيات خلقه.

ومهمة العقل أن يتأمل هذه الآيات، وأن يزن النبأ والبشارة، ويختبر صدق الرسل وما جاؤوا به من وحيٍ وهدى، على ضوء القواعد التي فُطر عليها من تمييزٍ وإنصاف؛ غير أن على العقل أن يُدرك حدّه ووظيفته، وأن يعترف بأنه مخلوق، فلا يتجاوز أفق طاقته في محاولةٍ لإحاطة ما لا يُحاط به، فكما لا تستطيع العين أن ترى ما وراء الضوء، كذلك لا يستطيع العقل أن يدرك ما استأثر الله بعلمه من الغيب.

ومـن تمـام العقـل أن يبلـغ نقطـة التسـليم بعـد رحلـة البحـث، إذ يـدرك أن عجـزه عـن الإحاطـة لـيس نقصًـا فيـه، بـل دلالـة علـى أن خالقـه فـوق كـل إدراك، وأن وراء الغيب عالَمًا لا يُدرك بالبرهان، بل يُؤمن به بالقلب والعقل معًا.

فبعـد الوصـول الـي الفضـاء والتطـور التكنولـوجي والاقمـار الصـناعية وقـدراتنا المذهلة في تطويع الكون يقول الحق سبحانه : ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾

يخاطبنـا الله بآياتـه، ويرسـل إلينـا رسـائل فـي الأنفـس والآفـاق، ويتحـدّى عقولنـا بـالبراهين والـدلائل، لأنـه أعلـم بمـن خلـق، وأدرى بكيفيـة تفكيرنـا وتقلباتنـا فـي النظر والتأمل.

لقـد وهـب الله الإنسـانَ العقـل، ومنحـه قـدرةً فريـدةً علـى الإدراك، حتـى علَّـم آدم الأسماء كلها، علمًـا لـم تُعطَـه الملائكـة ذاتهـا، رغـم مـا أوتيـت مـن قـوى خارقـة، وأجنحـةٍ تُحلّـق بهـا، وأحجـامٍ تفـوق الوصـف، ثـم سـخّر الله لهـذا المخلـوق الصـغير الكـونَ بمـا فيـه مـن عناصـرٍ وقـوانين، فبالعقـل أقـام الإنسـان الحضـارات، وشـيَّد المـدن، واختـرع الطـائرات، واختـرق الفضـاء، وسـبر أعمـاق الـذرّة والخليـة، حتـى صـار فـي بعـض قدراتـه شـبيهًا بالملائكـة فـي الفعـل والتمكُّن.

غيـر أن الإنسـان، حـين انبهـر بنفسـه، اغتـرّ بعقلـه، فبـدأ يشـكّ فـي الفطـرة، ويُجـادل فـي البـديهيات، وينكـر الجانـب الآخـر مـن كيانـه – الـروح – التـي بهـا

يـدرك الحـق ويصـل إلـى الطمأنينـة، فاختـلّ ميـزان المعرفـة حـين فَصَـلَ العقـل عن الروح، وصار يرى بعينٍ واحدةٍ من أصل اثنتين.

والأَولـى بالإنسـان، حـين يسـتخدم عقلـه علـى الوجـه الحـق، أن يرتقـي فـي الفهـم حتـى يُـوقن أن وراء المـادة روحًـا، ووراء النظـام الكـوني خالقًـا حكيمًـا هـو مصـدر كـل الجمـال والجـلال. فحينئـذٍ يصـبح العقـل وسـيلةً للارتقـاء لا للجـدال، ويـدرك الإنسـان أنـه مسـتخلف فـي هـذا الكـون لا مالـك لـه، وأن كـل مـا سُـخِّر لـه إنما هو أمانةٌ يُختبر بها.

فمـن أدرك هـذا الاتسـاق بـين العقـل والفطـرة، وبـين العلـم والإيمـان، أدرك أن هـذا الكـون – مـن الـذرّة إلـى المجـرة – قـائمٌ علـى ميـزانٍ محكـمٍ لا يُفـرّط فـي شـيء، كمـا قـال تعـالى : ﴿ وَمَـا مِـن دَابَّـةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَـائِرٍ يَطِـيرُ بِجَنَاحَيْـهِ إِلَّا أُمَـمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

وقتهـا نكـون وصـلنا لعبـادة الله بشـكل صـحيح عـن طريـق التـدبر والعلـم، ونجحنـا فـي اختبـار هبـة العقـل لنـا، ونستشـعر أصـل الـروح وعلـو نسـبها إلـى الله، وعبدناه حبًا وشوقًا لرجوعنا إلى أصلنا.

وأمـا إذا اغتـرّ الإنسـان بعقلـه، وظـنّ أن علمـه يغنيـه عـن ربـه، تـاه فـي دروب الـوهم، وانحـرف عـن طريـق النـور؛ يظـنّ أنـه الأفضـل والأعظـم، وأن قدرتـه لا تحـدّها حـدود، فيسـتغني عـن المـنهج الإلهـي الـذي يهديـه سـواء السـبيل، وينكـر

الـروح ويـؤمن بالمـادة وحـدها، حتـى يُصـبح أسـيرًا لجسـده وشـهواته، يسـير وراء لذاتــه ظانًّــا أنهــا الحريــة، وهــي فــي حقيقتهــا قيــدٌ خفــيّ يقيّــده مــن حيــث لا يشعر...

وحـين ينفصـل عـن فطرتـه، ويعانـد النظـام الـذي جُبـل عليـه الكـون، يختـلّ توازنـه الــداخلي، وتبــدأ معاناتــه فــي نفســه قبــل أن تكــون فــي جســده، فــيملأ الضــيق صــدره، وتضــيع الطمأنينــة مــن قلبــه، مهمــا بلــغ مــن علــمٍ أو جمــع مــن مــال، مصداقًا لقول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾

فهــو الضــنك الــذي لا يُقــاس بفقــرٍ أو ألــمٍ ظــاهر، بــل هــو ضــياع المعنــى، وانطفــاء البصــيرة، وانفصــال الإنســان عــن ذاتــه التــي خُلقــت لتعــرف خالقهــا وتعبده عن وعيٍ ومحبةٍ وتسليم.

يقول **(الإمام النفري)** في مخطاطاته :

" إن الله أقرب من أن يحسه العلم، وأبعد من أن يدركه العلم...

العلــم حجــاب علــى المعلــوم، والعــالم محتجــب باليقظــة، كمــا أن الجاهــل محتجب بالغفلة، لأن العلم يشتت عقل العالم بين أجزاء ووجهات نظر.

العلــم ذو طرقــات، والطرقــات ذوات اخــتلاف، والاخــتلاف ذوات فجــاج، والفجــاج ذوات مخــارج، والمخــارج ذوات اخــتلاف، والاخــتلاف متاهــة، والعقــل إذا درى رجح بين احتمالات ووقع في المختلفات "

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

إن طريق الوصول إلى الحق ليس واحدًا، بل تتعدد مسالكه بتعدّد النفوس واختلاف الطبائع؛ فمنا من يبلغ الحقَّ بالعلم والبحث، ومنا من يهتدي إليه بالتأمل والبصيرة، ومنا من تُوقظه التجربة أو الألم أو الجمال الكامن في الوجود؛ لكن على اختلاف الطرق، فإن المنبع واحدٌ والمنتهى واحد، هو الخالق الذي منه تصدر كل التجليات الكونية من علمٍ وإبداعٍ ونظامٍ وجمال.

والوصول إلى الإيمان ليس معقّدًا، ولا حكرًا على الفلاسفة أو أصحاب المعارف العالية؛ بل هو أقرب إلى القلب من نفسه، وأوضح للعقل من برهانه.

فبمنتهى البساطة، يجد الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله دلائل لا تُنكر على وجود الخالق، فيستشعر عظمته ورحمته، وقربه وقوّته، فيرى صفات الجلال كما يرى مظاهر الجمال، ويعبده حبًّا وتقديرًا لما أنعم، أو خشيةً لما يملك من سلطان، أو إيمانًا بقدرته المطلقة على كل شيء.

أما العقل – على سعة مداركه ودقّة منطقه – فله حدٌّ يقف عنده، إذ هو مخلوقٌ محدودٌ لا يستطيع أن يحيط بخالقه الذي أحاط بكل شيء علمًا. فما خُلِق العقل ليُدرك ذات الله، بل ليُدرك أنه لا إله إلا الله، وليسلم بأن وراء الغيب سرًّا لا يُتناول بالبرهان، بل يُؤمن به بالسكينة والتسليم.

فكما قال **(وليم شكسبير)** في روايته : " **هناك أشياء في السماء والأرض يا هوراشيو أكثر مما تستوعبه فلسفتك** "

وقد يضعف العقل أمام هَيَجان الانفعالات، فيتخذ الإنسان أفعالًا لا تستند إلى منطقٍ صائب، بل تتأثر بسعادةٍ عابرة أو غضبٍ مفاجئ، وقد يعجز العقل عن مواجهة الخطر مباشرة فيغشى عليه أو يضل عن الحكم الصائب.

ومن هنا يتبين لنا أن العقل، مهما بلغ من إدراكٍ وفطنة، له حدودٌ طبيعية لا يستطيع تجاوزها في مواجهة الأمور الغيبية أو التجليات الإلهية.

فمثلًا موسى "عليه السلام" لما طلب من الله أن يراه، ورؤية الله النظرية لا تكون في الدنيا بطبيعتنا البشرية ولن نقدر عليها، ولكن الله تجلى بنوره فقط، وهو من صفاته وأسمائه، ولم يكن بذاته، تجلى سبحانه على الجبل فلم يستطع الجبل ولا موسى "عليه السلام" تحمل فقط تجلي الله على الجبل بإحدى صفاته وهي النور.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

فعقل موسى "عليه السلام" لم يتحمل تجلي الله على الجبل، وهكذا العقل البشري له حدود للاستيعاب ومدى للتحمل، ولكن نستطيع رؤية الله رؤية

قلبيــة وليســت عينيــة، فالرؤيــة القلبيــة باستشــعار وجــود الله فــي الخلــوات وخلــف المواقــف الحياتيــة وآيــات الله وحكمــه فــي الكــون، ونــرى الله وراء وفــي كــل شــيء في الكون.

فكـان رد الله علـى مـن قـال : لـو جـاء إلينـا ملـك رسـول بـدلًا مـن البشـر لآمنـا به؛ فقال لهم الله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾

أي لـو أنزلنـا إلـيكم ملكًـا رسـولًا كمـا تقولـون، لجعلنـاه فـي هيئـة رجـل حفاظًـا عليكم من الصعقة وتلطفًا بقدراتكم العقلية التي خلقناكم بها.

فالعقـل رغـم قدرتـه العظيمـة علـى التحليـل والفهـم، إلا أن لـه أبعـادًا لا يتجاوزهـا، خصوصًا حين يتعلق الأمر بالروح والغيبيات.

فالعقـل لا يـؤمن إلا بمـا تقـع عليـه حواسـه، ولـولا ذلـك، لمـا آمنـا بوجـود الفضـاء أو الكواكـب الأخـرى، فمنـذ قـرون، ظـنّ البشـر أن الأرض كـل شـيء، وأن فوقنـا شــمس وقمــر، ومــا دون ذلــك خرافــة؛ حتــى أتــت المحــاولات والاكتشــافات، فغيـرت كـل التصـورات، ومـا كـان خيـالًا صـار واقعًـا، ومـا ظننـاه مسـتحيلًا، أصـبح معرفـة مُثبتـة؛ ولـولا مرونـة العقـل، واسـتعداده لقبـول مـا لا يعرفـه بعـد، لبقينا محصورين في قوقعة الجهل.

***

سرّ الابتلاء وغاياته الخفية

كـلّ مـا فـي الكـون مـن حركـةٍ وسـكون، ومـن تعاقـبٍ للأحـداث واختبـارٍ للمشـاعر، إنمـا يجـري وفـق نظـامٍ محكـم خطّـه الله، غايتـه الأولـى أن يُسـيّر الإنسـان نحـو معرفـة ذاتـه، ثـم يشـهد عليهـا، فمـن لـم يعـرف نفسـه لـم يعـرف موقعه من الحق، ومن لم يعرف الحق لم يعرف خالقه.

والسير فـي هـذا العـالم لـيس هدفـه جمـع التجـارب لـذاتها، بـل كشـف مـا وراءهـا؛ ليصـل الـوعي إلـى تلـك الحقيقـة العليـا: أن الله هـو الأصـل، ونحـن إليـه نرجـع، وأن كـل مـا سـواه ظـلٌ زائـل، لا يملـك بذاتـه ألمًـا ولا نجـاة، لا دوامًـا ولا اسـتقرارًا، فكـل مـا نعـدّه اليـوم ثقـيلًا، مـن فقـدٍ أو معانـاة أو اضـطراب، يتضـاءل أمـام نـور المصدر الأول، ويتلاشى حين نستحضر حضوره الذي يغمر كل شيء.

ومـن يـوقن أن الله أكبـر مـن كـل مـا يقـع فـي الوجـود، يـدرك المعنـى العميـق لهـذه الكلمـة : مـن وجـد الله، فمـاذا يمكـن أن يفقـد؟ ومـن فقـد الله، فمـاذا يسـعه أن يجد؟

والحقيقـة المطلقـة التـي يقـود إليهـا هـذا النظـام الكـوني كلّـه، هـي أننـا إليـه نعـود، وإليـه نُسـاق للحسـاب والجـزاء؛ فـلا ظلـم يـدوم، ولا ظـالم يفلـت، لأن حكمـة الله اقتضـت أن تُحفـظ عدالـة الكـون بميـزانٍ لا يختـل، وأن يُسـترد الحـق فـي الـدنيا أو الآخرة، ليبقى الطريق إلى اليقين مفتوحًا لمن أراد الهداية.

الواصل بالله والمفوض أمره لخالق ومدبر الكون يستطيع أن يرى ويبصر الحكمة من كل الأحداث والأقدار أو يصبر على ما لم يحط به خبرًا حتى يفهم مضمونها، فيهدأ قلبه وعقله، فالمبصر والمُدرك لمضمون إرادة الله في كونه يشعر بلذة ومتعة متابعة الأحداث بهدوء ويقين بوجود الله ورؤيته في آياته وأقداره، ولهذا يقول **(الصوفي)** : " **نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف** "

كل منا في هذه الرحلة القصيرة له دور واختبار يستطيع تحمله، وإن شق عليه ذلك فإن الله لا يكلف نفسًا إلا ما أتاها، ولكن مع علمك أن هذا الألم أو المشقة مجرد اختبار وليس مصيرًا يهونه عليك، ويمكنك أيضًا من خلال هذا الاختبار أو الابتلاء تعلُّم المزيد عن نفسك والوقوف لترى وتتأمل وتفكر في مسيرتك في الدنيا وكيف تسير، وهل هذا الابتلاء لتتراجع عن الخطأ في السير الذي قد يؤدي إلى هلاكك في الدار الباقية؟ فالآخرة خير وأبقى من الدنيا وهي الأهم، فتبحث في ذنوبك من الكبائر التي لو قبضت عليها فمصيرك هو الخسران المبين والخلود في العذاب، وقد يكون الابتلاء لينبهك من ذنوبٍ كبائر تغافلت عنها، فإذا وقفت على أخطائك وتابعت عنها بصدق، ارتفع عنك البلاء، وعلمت نفسك وخالقك معنى الرحمة والعدل :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

وقد يكون الابتلاء أيضًا لتقوية النفس ورفع قدرتك على التحمل، لتفهم أكثر عن ذاتك، وخالقك، والكون، ولتهيئ نفسك لشيء عظيم قادم.

في هذه اللحظات، عليك أن تسمو فوق الألم، وأن تبحث عن المعنى في المعاناة، وتشكر الله على هذه التجربة، مع سعيك لجعل حياتك وحياة الآخرين أفضل وأقل ألمًا.

إن دورك في الحياة يشبه تمثيلًا على مسرحية : قم بدورك على أكمل وجه، ولا تشغل بالك بالمعاناة المؤقتة؛ فالاستشعار الدائم بأن هذا الابتلاء اختبار من الله في دنيا فانية، وأنه الرقيب المطّلع عليك، يجعل كل المشقات أخفّ، ويصبح ما يهم حقًا هو نتيجة أدائك وتقويمك عنده، لا الألم نفسه.

فالمعاناة هي التي تُظهر قوة الإنسان وصلابته الروحية واكتشاف ذاته الحقيقية ونقطة إبداعه، لذا يقال إن الألم خلَّاق.

فالصابر والواعي للمعنى الحقيقي للابتلاءات والحياة يتحمل ما يمر به، ويعلم أن حريته في داخله وفي ذاته الباقية للأبد وليس في جسده الزائل المؤقت، فيبحث عن المعنى في الابتلاءات ويتواصل مع ذاته ويقترب منها أكثر ويرتفع بها إلى التواصل مع الخالق، حتى يهدأ ويعلم أن هذا الابتلاء ما هو إلا رفعة لذاته في الحياة الباقية، وحبًا من الله له لينقذه من الخلود في العذاب، وأن وعد الله حق وكلامه حق.

علمك وإيمانك بأن الحياة ما هي إلا مجموعة من النقائض والأضداد يجعلك متوقعًا ومتقبلًا لأحداثها.

فالايمان هو السر في التقبل والصمود، فهو يجعلك تبحث عن الحكمة أو المغزى الروحي وراء الألم والموت والحياة، وهذا يجعلك تستقبلها بشجاعة، متيقنًا أن كل أقدار الله خير، وشاهدنا نماذج كثيرة واعية لمعنى الحياة مثيرة للانتباه من شدة الشجاعة والثبات حتى في استقبال الموت، وكل منا عايش بعض الشباب وبعض الأشخاص الذين رغم قساوة مرضهم وشدة الآلام وتعذر شفائهم ويقينهم بأنها مجرد أيام من الآلام في انتظار الموت، قابلوا كل ذلك بقوة روحانية وشجاعة تنم عن قوة ذاتهم وإيمانهم وعظمة قوتهم الداخلية التي علت وسمت فوق ظروفهم الخارجية، وقدموا لنا كتبًا ومؤلفات وإرثًا ثقافيًا وإبداعًا.

وكذا الكثير من الحكايات عن الناجين من معسكرات هتلر ومحارق الغاز، وتحملهم هذه المعاناة لأسباب مختلفة، هذه الأسباب أثرت في داخلهم وجعلته أقوى من القوى الخارجية، فعلى الإنسان أن يقرر إما أن يتحمل ويسمو إلى أن يصل للمعنى والقوة، أو أن يستسلم.

يقول **(جوردن أولبورت)** : **" فلكي تعيش عليك أن تعاني، ولكي تبقى عليك أن تجد معنى للمعاناة، وإذا كان هناك هدف في الحياة، فإنه يوجد هدف في المعاناة وفي الموت، ولكن لا يوجد شخص يستطيع أن يخبر الآخر بماهية هذا الهدف أو يسأله عن هذا الهدف، فعلى كل شخص أن يكشف هذا الهدف لنفسه وأن يتقبل المسئولية التي تحددها إجابته عن ماهية هدفه، وإذا نجح في ذلك فإنه سوف يستمر في النمو رغم كل الهوان "**

فهدفنا كمؤمنين بالخالق، وأننا خليفة له في الأرض، وأنه مُطلِع على تفاعلنا مع الأسباب والاختبارات التي نواجهها، سواء كانت بأيدينا أو خارجها، فيكون هدفنا دائمًا في الدنيا هو الترقي لفهم الحكمة ومعرفة الذات والتحمل مع الصبر الجميل، وهو الصبر مع الرضا، ومحاولة تحسين جودة الحياة لنا ولغيرنا، وأن نكون خير خليفة للخالق في الأرض، ونتبع منهجه للعيش في سلام نفسي ومتاع في الدنيا والآخرة، وهذا كفيل بأن نسمو ونعلو فوق الألم، وأيضًا لرفعة من الله.

وعلينا كمؤمنين بأن هناك خالقًا ومدبرًا أن نتفاعل مع الأحداث ولا نحكم على خيرها أو شرها، فكما قلنا إن حدود عقلنا قد لا ترى الخير من الشيء، ويكفينا قصص سورة " الكهف " وقتل الغلام وخرق السفينة وبناء الجدار توضيحًا لقصور علمنا.

علينا فقط أن نسمو عقليًا ومعنويًا عن الآلام، ونحاول تحسين جودة الحياة، ومساعدة قدر استطاعتك الذين يريدون المساعدة أو الذين يحاولون أن يحسنوا حياتهم للأفضل بدلًا من الشفقة والبؤس على حالك أو على غيرك، فوعيك وفهمك لذاتك الداخلية وتقبلك لأحداث الحياة يخلق في داخلك السيطرة والتسليم، وهذا يجعلك تعلو فوق الظروف الخارجية، وهذا هو السبيل للتواصل والوصول إلى الخالق وإلى حقيقة الأمور.

فنحن نجتهد ونسعى ونتحمل ولا نتوقع نتيجة أو حكمًا على الأشياء، فيقينك بوجود الخالق وأن أقداره كلها خير، يهدي قلبك ويعافيك من الأمراض النفسية المنتشرة.

فما الاختبارات والمشاق التي يلقاها الإنسان في الدنيا إلا رحمةً وهبةً لرفع مكانته وزيادة تأثيره وعماره للكون، وأيضًا في الدار الباقية، وهذه المشاق ما هي إلا تذكير بأن لا نغتر بالدنيا، فالنعيم والراحة والاستقرار في الجنة وليس في الدنيا، وهذا الابتلاء ما هو إلا لرفع درجاتك في الآخرة، ويكون حجة لك وتميز لك عن غيرك أمام نفسك وأمام الله وأمام الناس في الآخرة، وقد يكون سبب الابتلاء ما كسبت أيدينا من الذنوب والكبائر، فالتوبة منها والرجوع للحق وإلى الله لتكفر عن هذه الذنوب، يرفع هذا الألم والابتلاء.

فـالابتلاء الـذي تظنـه بعقلـك المقصـور عـن فهـم الغيبيـات شـرًا، مـا هـو إلا اختبـار مُقدَّر لـك ليـؤدي بـك إلـى خيـر أكبـر، سـواء فـي الـدنيا بعـد رضـاك، وفـي الآخرة بعد انتقالك من الدنيا.

ففـي الحـديث الشـريف يقـول المصـطفى ﷺ : " **يُـؤْتَى بِـأَنْعَمِ أَهْـلِ الـدُّنْيَا مِـنْ أَهْـلِ النَّـارِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فَيُصْـبَغُ فِـي النَّـارِ صَـبْغَةً ثُـمَّ يُقَـالُ : يَـا ابْـنَ آدَمَ هَـلْ رَأَيْـتَ خَيْـرًا قَـطُّ؟ هَـلْ مَـرَّ بِـكَ نَعِـيمٌ قَـطُّ؟ فَيَقُـولُ : لَا وَاللَّهِ يَـا رَبِّ، وَيُـؤْتَى بِأَشَـدِّ النَّـاسِ بُؤْسًـا فِـي الـدُّنْيَا مِـنْ أَهْـلِ الْجَنَّـةِ فَيُصْـبَغُ صَـبْغَةً فِـي الْجَنَّـةِ فَيُقَـالُ لَـهُ : يَـا ابْـنَ آدَمَ هَـلْ رَأَيْـتَ بُؤْسًـا قَـطُّ؟ هَـلْ مَـرَّ بِـكَ شِـدَّةٌ قَـطُّ؟ فَيَقُـولُ : لَا وَاللَّهِ يَـا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ** "

عـن جـابر رضـي الله عنـه قَـالَ : قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ : " **يَـوَدُّ أَهـلُ العَافِيَـةِ يَـومَ القِيَامَـةِ حِـينَ يُعطَـى أَهـلُ الـبَلَاءِ الثَّـوَابَ لَـو أَنَّ جُلُـودَهُم كَانَـت قُرِّضَـت فِـي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ** "

فحسْـب الآلام والمشـاق مـن قيمـة أنهمـا مـن وسـائل الإنسـان للوصـول إلـى حقيقـة نفسـه والرقـي بهـا حتـى يتوصـل إلـى الحـق المطلـق حتـى يتـيقن أن الآلام مـن صـنع العقـل، وهـو حُكمـك ورؤيتـك للأشـياء هـي التـي تعطـي حجـم التـأثير أو حجـم الألـم الـذي يصـيب حياتـك مـن عدمـه، وأن المعانـاة واقعيـة، أمـا الآلام اختيارية.

ومعرفة الله تأتي من معرفة الذات، فمن أقوال الفيلسوف **(أوغسطين)** :

" يا رب ارزقني معرفة نفسي لأعرفك "

ويعبر (جبران خليل جبران) عن أهمية الألم من وجهة نظره فيقول :

" إنّ ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم.

وكما أن القشرة الصلدة التي تحجب الثمرة يجب أن تتحطّم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس، هكذا أنتم أيضًا؛ يجب أن تحطّم الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معنى الحياة.

لأنكم لو استطعتم أن تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقّها من التأمّل والدهشة، لما كنتم ترون آلامكم أقلّ غرابةً من أفراحكم.

بل كنتم تقبلون فصول قلوبكم كما قد قبلتم في غابر حياتكم الفصول التي مرت في حقولكم؛ وكنتم ترقبون وتتأملون بهدوء وسكون شتاء أحزانكم وآلامكم؛ أنتم مخيرون في الكثير من آلامكم.

وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التي بواسطتها يشفي الطبيب الحكيم الساهر في أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة؛ لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم، وثقوا بما يصفه لكم من الدواء الشافي، وتناولوا جرعته المرّة بسكينة وطمأنينة.

لأن يمينه، وإن بدت لكم ثقيلة قاسية، فهي مقودة بيمين غير المنظور اللطيفة، والكأس التي يقدمها إليكم، وإن أحرقت شفاهكم، فهي مصنوعة من الطين الذي جلبته يدا الفخاري الأزلي بدموعه المقدّسة "

ومعرفة قلبك ونفسك ووعيك بها يجعلك أكثر رحمةً وتخفيفًا عن نفسك وعن غيرك، وهذه الرحمة تساعدك في الاستمرارية والسعي برضا ويقين.

فيقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾

فكما قلنا إن الله خلقنا بإرادة حرة واسعة الطموح والآمال تتخبط وسط قيود الدنيا وقوانينها تحاول أن تعبر عن نفسها وتترك أثرًا، وفي هذه الرحلة... رحلة الوصول والتخبط، منا من يسأل نفسه : إلى أين أريد أن أصل؟ وما الذي جاء بي إلى هنا؟ وكيف جئت؟ فيجد قلبه يجري وراء الدنيا ومفاتنها والحب والفن والنساء والمال والجاه والسلطان، ويلهث في محاولة الالتحاق وترك الأثر، ويزداد تخبطًا فيصيبه الملل مرة والإحباط واليأس والتعب والإرهاق من طول الطريق، ويظل يحاول إلى أن تتحول بُوصلة قلبه إلى حب الحق، وينكشف له طريق النور، فيجد نفسه يعبد الله بحب ويهدأ قلبه وينسجم ويتحد مع الكون ومع الأشياء ويصل إلى حقيقتها وحقيقة ذاته بفضل هذه الرحلة الشاقة من التخبط والمعاناة والابتلاءات، وحينها يدرك أن

كل هذه المشاق والتخبط كانت عين الصواب، وهي الدليل الذي أوصله إلى المصدر الرئيسي لذاته وللكون ولجميع المخلوقات.

نجد أنه إذا أدركت معنى للمعاناة، فهذا يسهل تحملها ويحولها من نقمة إلى نعمة، ومن تعاسة إلى اختبار يسُر النفس، فعندما تقف لتنظر وراءك في أي عمر لك وترى معنى لحياتك وقيمة لها بسبب المشاق التي واجهتها بقوة وصلابة، تشعر وقتها بالرضا وقيمة حياتك أنها لم تذهب سدى، بل كان هناك مغزى ومعنى.

ونعمة إدراك هذا المعنى تقتصر على الإنسان دون غيره من الكائنات، وإيجاد النتيجة من المعاناة أو المشاق في هذه الدنيا المؤقتة، ويقودك وقتها إلى أن ما بعد الدنيا أجَلّ وأعظم من تصوره بالعقل.

حتى وإن لم تدرك المعنى والحكمة من معاناتك وكانا مخفيين عليك، فيقينك بأن المدبر للكون دائمًا له خطة وحكمة وأنت مُجازى عليها في الدار الباقية ولم يذهب أي شيء سدى.

ويحكي القرآن في سورة "الكهف" عن بعض القصص التي حدث فيها ابتلاء لأصحابها لحكمة لم يعلموها وقتها.

فيقول تعالى عن سبب خرق السفينة : ﴿ **اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت ان اعيبها وكان ورائهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا** ﴾

خرق السفينة هنا كان في مصلحة أصحابها ولم يعلموا ذلك، فتخيل أن تسخط على قدر أو ابتلاء، وهو طريقة قدرية لتنقذك من الضياع والبطالة ومن أخذ مصدر رزقك منك.

ولنتعلم أن لا شيء يحدث عبثًا أو صدفة، وأن كل شيء يحدث في الكون لا يذهب سدى مهما غاب عنك الحكمة منه، وله دور في هذا الكون مهما بدا أنه ظُلم وعبث، ولنتعلم أنه فوق كل ذي علم عليم، وأنه مهما عجزت عن استبصار الحكمة من الأمور، فهناك حكمى فقط خَفَت عن علمك وعقلك ولكنها موجودة.

ويقول الله تعالى في حكمة قصة الغلام :

﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيان وكفرًا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا من زكاة وأقرب رحما ﴾

فكان موت الغلام مصلحة له، إذ لم يكن قد كُلف بعد، ولأبويه المؤمنين حمايةً من فتنة قد تثقل عليهما في حياتهما الدنيا، فالله أعلم بما يصلح لعباده، كما يذكّرنا الحق تعالى في موضع آخر : **﴿ إِنَّ مِنْ أَوْلَادِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾**

وهذه هي حكمة الله التي قد تغيب عن أعيننا أحيانًا، فالحكمة الإلهية لا تظهر دائمًا بالظاهر، لكنها تتجلّى في النهاية في حفظ المصالح العليا وحماية النفس والمعتقد.

وكذلك ما ذكر عن الجدار :

﴿ **وأما الجدار فكان لغلمين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك** ﴾

فالحكمة هنا أن الكنز لم يكن ليصيب الغلامين قبل أوانهما، إذ لو وقع الجدار ووجده أهل المدينة لربما أخذوه بلا حق، فكان من مصلحتهما أن يبقى الكنز محفوظًا حتى يبلغ الطفلان أشدهما، ليستطيعا الحفاظ عليه والتصرف فيه بما يرضي حكم الله وعدله.

وهكذا تُظهر هذه الأمثلة أن حكمة الله في القضاء والقدر تتجاوز إدراك الإنسان المحدود، وأن كل ما يراه الإنسان من ألم أو فتنة أو فقد قد يخفي وراءه خيرًا عظيمًا، سواء للإنسان نفسه أو لمن حوله، بما ينسجم مع النظام الكوني الذي خلقه الله بحكمة بالغة.

ويقول الخضر الصالح الذي يمتلك علمًا لدنيًا من قِبل الله سبحانه وتعالى في نهاية الآيات: "وما فعلته عن امري"، أي أن كل هذا بأمر الله وتعليمه الذي هو من لدن الله، وهذا خاص بأخلاء الله وأوليائه الذين يستأنسون به وبالخلوة مع الله والتواصل معه، فهو المصدر الرئيسي، فيعطيهم شعاعًا من نوره فينور بصيرتهم.

ويقول الخالق عن أولي الألباب وهم أصحاب العقول والبصيرة : ﴿ **افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمي انما يتذكر اولو الالباب** ﴾

إن البحث عن المعنى وراء المعاناة يُعد من أساليب العلاج النفسي العميق، وقد تبنته بعض مدارس علم النفس، وكان رائد هذا النهج الدكتور **(فيكتور فرانكل)**، أحد الناجين من محارق هتلر، الذي عانى من أقسى التجارب الإنسانية.

من خلال معاناته، أدرك فرانكل أن إيجاد معنى في الألم والمعاناة يمنح الإنسان قوة داخلية لا تهتز، ويحوّل التجربة الصعبة إلى فرصة للنمو النفسي والروحي؛ وهذا يتناغم مع حكمة الله في الابتلاءات؛ فالابتلاء ليس مجرد ألم عابر، بل دواء للروح والنفس، وفرصة لفهم الذات والخالق، ورفع قدرات الإنسان على الصبر والإدراك، حتى يصل إلى مرحلة من الوعي والسكينة التي لا تتحقق إلا بالاختبار والتجربة.

ويقول **(فرانكل)** عن المعني الغائي في كلامه عن العلاج بالمعنى :

" يتجاوز المعنى الغائي بالضرورة ما لدى الإنسان من إمكانيات عقلية محدودة ويسمو عليها، وحين نتكلم عن العلاج بالمعنى في هذا السياق فإننا نتكلم عن المعنى الغائي، وليس المطلوب من الإنسان أن يتحمل ما في الحياة من لا معنى كما يذهب بعض الفلاسفة الوجوديين، ولكن المطلوب أن يتحمل عجزه وعدم مقدرته على إدراك غنى المعنى وامتلاء الحياة بالمعاني إدراكًا رشيدًا بلغة عقلانية منطقية، فالمعنى أعمق من المنطق "

فالإيمان بالمعنى والحكمة من كل الأحداث هو سبيل النجاة من الأقدار، فوجود الابتلاء أو الاختبار لا يزعزع المؤمن ولا يزحزحه عن ثباته، فهو من قَبل الابتلاء مصدق ومطمئن؛ حتى وإن طال الابتلاء فدائمًا هناك انتهاء له ومكافأة وعوض أضعافه في الآخرة، فقراءة قصص السابقين وما تعرضوا له من مشاق وطول الابتلاء، نأخذ العبرة بأن الابتلاء ما هو إلا اختبار تجتازه أو ترسب فيه، فالمؤمن الثابت المتمكن كالتلميذ المجتهد المتمكن المستعد له يحب الاختبار، على عكس التلميذ المهمل غير المجتهد، فالابتلاء في ذاته ليس مكروهًا، وإن صعُب فالهدف هو النتيجة وليس الاختبار.

فالمؤمن الذي يعلم أن هناك نعيمًا مؤجلًا أكبر وأعظم من الإغراءات الدنيوية، فيصبر ويقاوم ويسمو فوقها، وخير مثال على ذلك مقاومة سيدنا يوسف "عليه السلام" لامرأة العزيز ولشهوته لعلمه أن هذه المقاومة والصبر يؤولانه إلى ما هو أعظم وأفضل.

وكما جاء في القرآن عن قصص الابتلاءات، فعلى سبيل المثال قصة سيدنا إبراهيم الخليل وهو أكثر إنسان نجح في الابتلاءات حتى قيل عنه إنه عاشق الابتلاءات.

فقولـه تعـالى حكيًـا عـن سـيدنا إبـراهيم الـذي وفـى كـل مـا عليـه مـن تكـاليف لله تعـالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَـى إِبْـرَاهِيمَ رَبُّـهُ بِكَلِمَـاتٍ فَـأَتَمَّهُنَّ قَـالَ إِنِّي جَاعِلُـكَ لِلنَّـاسِ إِمَامًـا قَـالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

فـالابتلاء علـى كـل شـخص بمـا يناسـبه ويناسـب قـدره، فسـيدنا إبـراهيم أراده الله أن يكـون إمامًـا وقـدوةً وحـاملًا للنبـوة، فتَحَمَّـل قمـة الابـتلاءات والتكـاليف وأوفاهـا أتـم وفـاء، فـنجح فـي ابتلائـه فـي نفسـه فـي أن يُقـذف فـي النـار، ونجـح فـي ابتلائـه فـي ابنـه آخـر أيـام حياتـه وكُلِّـف بـأن يذبحـه بيـده ونجـح فـي ذلـك، وغيرهـا مـن التكـاليف التـي الله بهـا فأثبـت بـذلك للعـالمين أن إيمانـه بالخـالق أعـز عليـه مـن نفسـه وولـده، فكـان جـزاؤه مـن الله أن جعلـه إمامًـا وقـدوةً وجـديرًا بـأن يحمـل الرسـالة، والله أعلـم بـأن سـيدنا ابـراهيم سـينجح فـي الاختبـارات، ولكنه أراد أن يعلمنا ويعلم سيدنا إبراهيم عن نفسه أولًا.

فلسفة الوجود

خُلِقنا لله، وإليه ننتهي، وكل ما في الكون إنما أُبدِع لأجلنا، وسُخّر ليكون مجالًا لعملنا واختبارنا، ومع هذا، نهانا الله أن نتعلّق بما خلقه لنا، أو أن نجعل من عطاياه آلهة بديلة؛ فالأشياء وسائل، وليست غايات، أمّا الغاية الواحدة الأصيلة **فهي عبادة الله، وعودة الروح إلى أصلها.**

ولهذا، مهما ابتعد الإنسان في آفاق الدنيا، ومهما جرّب من لذّاتها وأمواجها، فإنه لا يجد السكينة الحقيقية إلا حين يعود إلى مصدره الأول؛ إلى لحظة الخلوة، إلى سجدة صادقة، أو إلى عمل يُستحضر فيه وجه الله، هناك فقط يشعر بأن روحه تلامس موطنها، وأن داخله يُعاد ترتيبه وفق نظام الكون.

لقد جعلك الله خليفةً في هذا العالم، وألقى عليك قبسًا من نوره، ونفخ فيك من روحه، فكان فيك استعدادٌ فطري للرقي والجمال، غير أن هذا النور قد أُودِع في جسد، وهذا الجسد ليس إلا مركبة مؤقتة، تحمل الروح بعض الوقت، ثم تُترك خلفها كما تُترك الثياب عند نهاية الرحلة.

وروحك – التي هي الأصل – مُبتلاة بالجسد وبالنفس ورغباتهما، لا لتحاصر، **بل لتُختبَر** : هل ستسمو الروح فوق الشهوة؟ هل ستجعل الجسد تابعًا لا متبوعًا؟ هل ستجعل طاقة الحياة وسيلةً إلى الحلال والرضا، أم ستترك الجانب الحيواني يغلب الجانب الإلهي فيك؟

ولأن الله أمـرك بـالتعمير والتفكـر والسـير فـي أرضـه، وضـع لـك منهجًـا عقليًـا ومنطقيًـا يهـديك فـي هـذا الاسـتخلاف؛ منهجًـا إن اتُّبِـع، عـاش الإنسـان حيـاة سـوية مسـتقيمة، رضـية عنـد الله وعنـد نفسـه، فالـدنيا ليسـت مقامًـا نهائيًـا، بـل مرحلـة فـي مسـارٍ أكبـر، تُنقَـل الـروح بعـده إلـى مقـام أعلـى، يرتفـع فيـه الحجـاب، ويُكشف فيه السر، وتعود فيه الأمور إلى أصلها.. إلى الله.

فالمـادةُ، والأسـبابُ، والعلـومُ – علـى اتسـاعها – لا تسـتقيم إلا إذا خضـعت لمـنهجٍ يضـبط حركتهـا ويوجّـه غايتهـا، فالـدين لـيس نقيضًـا للعلـم، بـل هـو الإطار الميتافيزيقي الذي يمنح العلمَ معناه ويحدد وظيفته في خدمة الإنسان.

مـن غيـر هـذا المـنهج الإلهـي تصـبح العلـوم أدواتٍ عميـاء، تُنمّـي القـدرة ولا تُنمّـي الحكمـة، وتُطـوِّر الوسـائل دون أن تُعـرّف الغايـات، فينحـدر الإنسـان إلـى "**غابةٍ مُتقدّمة**" لا يسودها إلا منطق القوة.

الـدين هـو الكتـابُ الأشـمل، الـذي يحتـوي فـي جـوهره بـذور كـل العلـوم؛ لأنّـه يُعـرّف لكـل علـمٍ غايتَـه، ولكـل قـدرةٍ حـدودها، ولكـل سـببٍ موضـعه، فيجعـل الحياة الإنسانية حياةً آدمية لا حيوانية.

فـالعلم – مـن دون توجيـه روحـي – يظـل قاصـرًا عـن بلـوغ الحقـائق النهائيـة؛ إذ هـو يتعامـل مـع الظـاهر : المـادة، والكمّيـات، والقـوانين، أمّـا المـنهج الإلهـي فيكشف الباطن : الحكمة، والغاية، والاتزان الذي تقوم عليه الحياة.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾

فالضنك ليس نقصًا في المال أو العلم، بل نقصٌ في المعنى؛ نقصٌ في البوصلة التي تُفسّر الوجود وتوجّه الفعل وتُعيد للإنسان اتّزانه الداخلي.

كلٌّ منّا يتوهّم أنه يفهم العالم أكثر من غيره، ويتصرف كأنّ رأيه هو الحقيقة؛ لكن هل يمكن لأحدٍ أن يفهم نظام الكون – بما فيه من حكمةٍ وتقدير – أكثر من خالقه؟!

العلم يتغير، والنظريات تتبدّل، وما يُثبت اليوم قد يُنقض غدًا؛ لكنه يظل وسيلةً نبيلة، إذا وُضع في مكانه الصحيح، للوصول إلى الحق، لا ليصنع حقائق من عنده.

ولهذا ختم الله بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

فالعلماء الحقيقيون هم أكثر الناس إدراكًا لحدود العلم، وأكثرهم شعورًا بعظمة المنهج الإلهي وثباته، وأكثرهم وعيًا بأنّ المعرفة بلا معنى تُتعب الروح، والمعنى بلا معرفة يُعطّل الإنسان؛ والاتزان بينهما هو الارتقاء الحقيقي.

ويقول الفيلسوف اليوناني **(أفلاطون)** : " **إن هناك مفتاحًا ذهبيًا يوحد كل أسرار الكون، هذا المفتاح الذهبي يعود إلينا مرارًا وتكرارًا من خلال جميع اكتشافاتنا، هو ذكاء اللوقوس؛ نستطيع أن نقول إنه عقل الإله** "

و(**آينشتاين**) صاحب مقولة " **العلم دون دين أعرج، والدين دون علم أعمى** " يقول أيضًا عن القوة التي تنظم وتشمل الكون وتنظمه : " **أجمل شيء يمكننا تجربته هو الغموض، وهو مصدر كل الفن الحقيقي والعلم، فالشخص الذي يرى أن هذا الإحساس غريب لديه أو الشخص الذي لا يستطيع التساؤل ويقف مستغرقًا في رهبة تامة، فهو تمامًا كالميت، عيناه منغلقتان** "

نحن كطفل صغير دخل مكتبة ضخمة مليئة بالكتب وتحتوي على العديد من اللغات المختلفة، الطفل مدرك أن هناك شخصًا قد كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف كيف، ولا يفهم تلك اللغات المختلفة المكتوبة في تلك الكتب.

يلاحظ الطفل أن هناك شيئًا غامضًا في نظام الترتيب للكتب، ولكنه لا يعرف ما هو هذا الموقف، كما يبدو لي، موقف أي إنسان، حتى أن الأشخاص الأكثر ذكاءً قد يتوقفون ويتساءلون عن الله وعن خلقه. نحن نرى الكون مرتبًا بشكل رائع ومطيعًا لقوانين معينة، ولذلك ليس بمقدور عقولنا المحدودة رؤية القوة الغامضة التي تحرك الأبراج.

كل عالِمٍ ينظر إلى الكون بتعمق، وكل صوفي ينظر إلى ما بداخل نفسه بعمق، يتوصل في نهاية المطاف وجهًا لوجه مع نفس الشيء.

فلما كان العلم إحدى أهم الوسائل للوصول إلى الحق، ومعرفة الخالق، وفهم الكون وغاياته، أمر الله تعالى به وحثّ عليه، وجعله طريقًا إلى البصيرة والهدى، فقال : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ ولم يكن من قبيل المصادفة أن تكون أوّل كلمة نزلت في القرآن هي ﴿ **اقرأ** ﴾، ليُرسّخ الله في الوعي الإنساني أن المعرفة هي مفتاح الارتقاء الروحي والعقلي.

غير أنّ العلوم المادية – كالفيزياء والكيمياء والرياضيات وسائر علوم الكون – إذا انفصلت عن نور المنهج الإلهي، أصبحت حياةً ماديةً محضة، تُيسِّر للإنسان أدوات الرفاهية والترف، لكنها قد تُفقده المعنى والاتزان، فحين يتقدّم الإنسان في المادة ويتراجع في الروح، تتخلق بداخله فجوة عميقة تُثمر قلقًا، ويأسًا، وخوفًا، واكتئابًا، لأنّ العلم وحده لا يجيب عن أسئلة الغاية، ولا يشفي عطش الروح، ولا يملأ فراغ المعنى.

﴿ **ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا** ﴾

إن تعميق الإيمان بالقضاء والقدر – كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّه** ﴾ واليقين بأن لكل قدر حكمة، ولكل سبب ترتيبًا إلهيًا دقيقًا، حتى لو قصُر العقل عن إدراكه، هو من صُلب الإيمان، ومن أعظم ما يبعث الطمأنينة في النفس، فهذا التسليم ليس هروبًا، بل هو شفاء، يُنقِّي الصدر من الاضطراب والوساوس والأوجاع النفسية، لأن المنهج الإلهي – بما هو منهج الخالق

العــالِم بصــنعة الإنســان – مــنهجٌ مســتقيمٌ معتــدل، يضــبط الفكــرة والشــعور والسلوك.

ومـن أصـول الإيمـان التـي ترسّـخ هـذا الاتـزان النفسـي: الإيمـان بالقـدر خيـره وشره، كمـا جـاء فـي حـديث جبريـل المشـهور حـين قـال النبـي ﷺ : " **أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره** "

وغـرس هـذا المبـدأ فـي العقـل، وطبعـه فـي القلـب، يجعـل الإنسـان أكثـر قـدرة علـى احتمـال مـا يقـع مـن أحـداث الـدنيا، إمـا برضـا، أو – علـى الأقـل – بـلا سخط يفتك بالقلب ولا وجع ينهش النفس.

وهنـا يلتقـي عمـق الإيمـان مـع حكمـة الفلاسـفة فيمـا يُشـبه "**العـلاج بـالمعنى**"، فكمـا قـال **(مـاركوس أوريليـوس)** فيمـا معنـاه : " **تسـتطيع أن تتحمّـل أي شـيء يسـتطيع عقلـك أن يصـيغه فـي صـورةٍ يمكـن احتمالهـا، عبـر النظـر إليـه كمـا لو كان في مصلحتك، أو جزءًا من طبيعتك** "

وهـذا المعنـى – علـى وجازتـه – يقتـرب كثيـرًا مـن جـوهر التسـليم لله: لـيس لأن القـدر خـالٍ مـن الألـم، ولكـن لأن لـه حكمـة، ولأن فوقـه معنـى، ولأن الإيمـان يحـوّل وقعـه مـن جـرحٍ إلـى درس، ومـن خسـارةٍ إلـى نـور، ومـن معانـاةٍ إلـى ارتقاء.

فالإيمان، مقرونًا بالتعقّل في حكمة الخالق وإدراك وجود المُسبِّب وراء كل سبب، يمنح القلب سندًا لا تسقطه انهيارات الواقع، فإذا ضاعت الأسباب، بقي المُسبِّب، وإذا انقطعت الحبال، ظلّ الرابط الأعظم قائمًا، وهكذا يبقى في النفس أملٌ لا ينطفئ، وأمانٌ لا تهزّه العواصف، لأن مصدره ليس الظاهر المتقلّب، بل الحقيقة الثابتة خلفه.

ومع هذا اليقين لا يجد اليأس منفذًا، ولا تستقرّ في القلب أمراض النفس، لأن الروح المتصلة بربها تعرف أن فقدان الأسباب ليس نهاية، وأن ما عند الله لا يُغلق بباب، ولا يُعجزه حال.

فيقول تعالى : ﴿ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا** ﴾

ويقول النبي ﷺ : " **عجبًا لأمر المؤمن كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن** "

فنحن مأمورون بالأخذ بالأسباب، ومؤمنون في الوقت نفسه بربِّ الأسباب، وبهداية قوله تعالى : ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾؛ فهذه أولى صفات المتقين : الإيمان بالغيب.

نحن نؤمن بما غاب عن أبصارنا، ونستند إلى ما وراء الأسباب، لأن لله سننًا خفية فوق إدراك العقل، وقدرًا يسري في تفاصيل الحياة بلطف، فنعبد لطيفًا لا تُدرَك دقائق حكمته، وبصيرًا لا يغيب عنه شيء.

فالإيمان – كما ذكرنا – هو التصديق المطمئن، الثابت أمام العواصف، فوجود الابتلاء لا يزعزع قلب المؤمن؛ لأنه يحمل في داخله حسن ظن بربه، ويصدق وعد النبي ﷺ : " **أنا عند ظن عبدي بي** "

ولذلك يرى المؤمن أن كل ابتلاء، مهما بدا في ظاهره شرًّا، فهو في عمقه خيرٌ مُقدَّر، وهذا هو سرّ قوة المبتلين من أهل الإيمان : تلك القدرة العجيبة على الثبات أمام ما يراه غيرهم أهوالًا لا تُحتمل.

فالظلم، والجوع، والبرد، والمرض، والعُريّ؛ لم تزدهم إلا يقينًا وتسليمًا، لأنهم ينظرون إلى ما وراء الصورة، إلى الحكمة، وإلى اليد الرحيمة التي تدبّر كل شيء.

ففي قوله تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ، وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ إشارة دقيقة إلى أن كل ما يجري في هذا الوجود هو خيرٌ في حقيقته، حتى وإن بدا في صورته الأولى غير ذلك.

فالله تعالى قال : (**بِيَدِكَ الْخَيْرُ**) ولم يقل : **(الخير والشر)** ، لأن ما يبدو لنا شرًا إنما يحمل في عمقه حكمة وخيرًا لا تدركه الأبصار القاصرة.

فإيتاء الملك ونزعه خير، والعز والذل خير؛ لأن الله أعلم بعباده : فالملك قد يكون نعمةً لمن عدل وأقام الحق، وقد يكون نقمةً على من جار وتكبر.

وكذلك العزة قد ترفع صاحبها إن شكر، وتهلكه إن غرّته قوته؛ فالأحوال كلّها – بما فيها مما نعدّه "خيرًا" أو "شرًا" – هي امتحانات يجريها الله لعباده، كما قال جل شأنه : ﴿ **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾

بل قد يكون ما يراه الناس خيرًا نوعًا من الإملاء والاستدراج للظالم، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا** ﴾، فبعض النعم الظاهرة ليست إلا زيادة في الحُجّة عليهم، وتوسيعًا لدائرة اختبارهم.

ومن هنا يكون المؤمن العاقل هو من يُدرك أن منهج الله كله خيرٌ له، وأن التمسك به هو الفلسفة الحقيقية للحياة؛ فهو يؤثِر الدار الآخرة الباقية على دنيا فانية، لا بقاء لنعيمها ولا دوام للذّاتها؛ لأن ما يُعصى الله لأجله لا يستحق أن يُضحّى بالخلود في رضوانه بسببه؛ وهذا هو الذكاء الحقّ، والحكمة التي ينكشف بها جوهر الوجود.

يُروى في الأثر الإلهي : " **يا ابنَ آدم، خلقتُك لنفسي، وخلقتُ الأشياءَ كلَّها لك؛ فبحقي عليك، لا تنشغل بما خلقته لك عمّا خلقتك له** "

وهـو معنـى يُجسّـد جـوهر الوجـود الإنسـاني : فـالله خلـق الإنسـان لغايـةٍ أسـمى، وجعـل مـا فـي الكـون كلـه وسـائلَ تعينـه علـى السـير نحـو تلـك الغايـة، لا أن يتحول الكون ومتعُه إلى حُجبٍ تصرفه عنها.

فالـدين لـيس مشـروعًا أخرويًـا فحسـب، بـل مـنهج حيـاة؛ نُـزّل ليقـيم للإنسـان ميزانًـا يضـبط علاقتـه بنفسـه، وبالنـاس، وبـالكون، بـه تُصـان الحيـاة مـن الفوضـى، ويُـدفع الشـر، وتُحفـظ الكرامـة الآدميـة، فيعـيش الإنسـان حياتـه الـدنيا في انسجام واتزان وطمأنينة.

فاتبـاع المـنهج الإلهـي لـيس عبئًـا، بـل أحـد أعظـم أسـباب الراحـة النفسـية؛ إذ يـنظّم حركـة القلـب كمـا يـنظّم حركـة المجتمـع، ويعيـد الإنسـان إلـى مركـزه الصـحيح فـي هـذه الرحلـة المؤقتـة؛ فمـا كـان للإنسـان أن يحيـا حيـاة مسـتقيمة بـلا هدايـة، ولا أن يهنـأ بـلا نظـام يحكـم شـهواته، ويهـذب رغباتـه، ويرشـده إلـى ما يليق بروحه التي نفخ الله فيها من أمره.

وهكـذا، يكـون الـدين فـي الـدنيا أمانًـا وطمأنينـة، وفـي الآخـرة جـزاءً أكبـر وأبقـى، لتكتمل بذلك حكمة الخالق في الابتداء والختام.

***

إن الله سبحانه وتعالى هو مُسبّب الأسباب، وإرادته غالبة على كل شيء، فمهما بدت الأبواب مغلقة، ومهما انعدمت الأسباب في أعين البشر، تبقى مشيئته نافذة، وأمره سابقًا على كل الأمور : ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾

قد يُؤخَّر الفرج لا لعجزٍ أو قصور، بل لحكمةٍ بالغة، ليُهيّئك الله لأمرٍ أعظم مما كنت تظن، كما كان شأن يوسف عليه السلام حين ابتُلي بالبُعد والسجن، ليُرفَع بعد ذلك إلى مقام التمكين، ويكون مثالًا حيًا لسنّة الله في الكون : بعد العسر يُسر، وكل عسر يُلازمه يسران، رحمةً وتخفيفًا من رب العالمين.

فلتحمل في قلبك يقينًا صادقًا: أن التأخير ليس حرمانًا، وأن كل شدّة تحمل في طياتها بذور الفرج واليسر، وأن إرادة الله أقوى من كل عراقيل البشر، وأن لكل قدرٍ بابًا يُفتح نحو رحمة أعظم، وأن ما يظنّه الإنسان سوءًا قد يكون في حقيقتة أعظم نعمة.

عندما يدرك الإنسان المغزى الحقيقي من هذه الدنيا، ويصل إلى معرفة ذاته وفهم معانيها وغاياته الخاصة، يصبح قادرًا على تحمل ما فيها من شدائد، ويستطيع أن ينعم بحياة هادئة وسعيدة.

فهـذا الإدراك يمنحـه القـدرة علـى مواجهـة الحيـاة بحكمـة، ويعلّمـه كيـف يسـلك طريقـه نحـو الأفضـل، معتمـدًا علـى الأسـباب التـي أمـره الله باتخاذهـا، دون انغماس في اليأس أو القنوط.

والحيـاة لكـل شـخص معناهـا الخـاص، فقـد يختلـف إدراكهـا مـن موقـف لآخـر، ومـن فـرد لآخـر، حسـب الهـدف الـذي خُلـق لـه والمعنـى الـذي يسـعى إلـى بلوغـه، لـذلك لا جـدوى مـن مقارنـة نفسـك بـالآخرين، فلكـل إنسـان رحلتـه وظروفـه وقـدره، ومـا يبـدو نجاحًـا للآخـرين قـد لا يكـون مناسـبًا لطريقـك، ومـا تـراه صـعوبة قد يكون دربك للنمو والارتقاء.

وهـذا الفهـم العميـق هـو سـر الثبـات أمـام الهـزائم، ومحـرك السـعي نحـو الأفضـل، لأنـه يـربط الإنسـان بمغـزى وجـوده، ويجعـل كـل مـا يمـر بـه مـن أحـداث واختبـارات مرتبطًـا بالغايـة الأسـمى التـي وُجـد لأجلهـا، ويجعلـه يسـعى بالأسـباب إلى ما يُعينه على تحقيق هذه الغاية بثقة وطمأنينة.

إن اليقـين بـأن القـرب مـن الله هـو النجـاة الحقيقيـة، بـل هـو النعـيم والعافيـة فـي الـدنيا والآخـرة، هـو سـرّ الطمأنينـة التـي يبحـث عنهـا كـل قلـب. فمـن جـاور الله بقلبـه، أحاطتـه عنايتـه، وتـولّى أمـره، ودافـع عنـه، وحمـاه مـن تقلبـات الأقـدار وأهوال الدنيا والآخرة.

وحين يبلغ العبد هذا المقام، يرى في كل شدةٍ تمر به إعدادًا لمرتبة أرفع، وتمهيدًا لمكانة أعظم، وكأن البلاء ليس عثرةً في الطريق، بل جسرًا يعبر به نحو كرامة الله ورضوانه. عندها يصبح كل ما يُثقل الروح بابًا للرفعة، وكل ما يوجع القلب رسالة إعداد لعطاء أعظم مما يتصوّر.

فالمطلوب منك في هذه الحياة، مهما كثرت معاناتك، هو أن تعمل وتسعى لتحقيق ذاتك، وأن تكون خير خليفة للخالق في الأرض، باتباع منهج خالق الكون، لتنال السعادة في الدنيا والآخرة على حد سواء؛ واعلم أن كل مقاومة، وكل معاناة، وكل عقبة تواجهها، لها معنى وغاية في بناء إدراكك وفهمك، سواء أدركت ذلك المعنى الآن أو سيظهر لك لاحقًا؛ وفي الآخرة، ستُجازى على صبرك وتحملك، فحتى أصغر ألم أو شوكة تصيبك لن تضيع سدى، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

كل شخصٍ لديه مسئولية في هذه الدنيا، وعليه أن يعمل ويسعى بجد، ليجد المعنى الحقيقي لحياته، وللمشكلات التي يواجهها، وللغرض الذي وُجد من أجله، فكل تجربة وكل ابتلاء هي رسالة، ودافع للنمو، وفرصة للتقرب إلى الله بالعمل الصالح والإيمان الصادق.

علينا أن ندرك أن العراقيل والمشكلات التي تعترض طريقنا ليست غاية في ذاتها، ولا ينبغي أن تكون سببًا للجزع أو اليأس، إنما المهم أن نتوقف

لحظـة، نلـتقط أنفاسـنا، ونسـأل أنفسـنا : كيـف سـنتعامل مـع هـذه الحادثـة؟ مـاذا سنتعلم منها؟ وما الذي تكشفه لنا عن ذاتنا؟

فكـل واقعـة تحمـل حكمـة، ومـا مـن شـيء يحـدث عبثًـا أو صـدفة، كمـا قـال تعـالى : ﴿ وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُـمْ ﴾ ؛ فـدورنا لـيس الـتحكم فـي الأحـداث أو منعهـا، بـل اختيـار كيفيـة التفاعـل معهـا، وصـنع وعـي جديـد، ورؤيـة أعمـق للحياة من خلال كل تجربة نمر بها.

ومهمـا اشـتدت الظـروف وبلغـت الأحـداث ذروتهـا، يظـل الإنسـان قـادرًا علـى أن يقـرر عقليًـا وروحيًـا كيـف يريـد أن يشـعر، ومـاذا يريـد أن يكـون، وهـذه هـي الحريـة الداخليـة التـي لا تُسـلب أبـدًا، الحريـة التـي تمـنح للمعانـاة معنـى، وللحيـاة بعدًا أسمى، وتجعل من الآلام طريقًا للنضج والتسامي.

فمـع علمـك بوجـود دار القـرار بعـد هـذه الـدنيا، يـزداد صـلابتك واطمئنانـك النفسـي، لأن لـديك هـدفًا ثابتًـا تصـمد مـن أجلـه مهمـا تغيـرت الظـروف أو الأشـخاص مـن حولـك؛ ويقينـك بوجـود الخـالق يجعلـك تشـعر بالزهـد فـي شـهوات الـدنيا، وتقبـل حوادثهـا بـروح مطمئنـة، فتـدرك حينهـا أن الـدنيا مرحلـة انتقاليـة، وأن مهمتـك فيهـا أن تـؤدي أفضـل مـا لـديك، وتسـلك طريـق العظمـة الداخليـة، متجاوزًا كل العراقيل.

وعندما تدرك أن مكافأة وحسابات الدنيا ليست كل شيء، وأن الثابت فيها هو الله، وأن شعورك الداخلي بذاتك مستمد من وجود الله وكرمه لك، عندها يتحقق لك الطمأنينة والهدوء الكامل، والثبات في مواجهة ما تواجهه من مصاعب.

إن أغلب الأمراض النفسية تنشأ من الداخل، ومن ضعف الإرادة في مواجهة أحداث الحياة، فالمشاعر المكبوتة هي التي تصبغ رؤيتنا للعالم، وتجعلنا نرى الحياة من خلال ظلال الخوف والقلق والتوتر.

أما التسليم واليقين بوجود مدبر حكيم، فيحررك من هذه المشاعر السلبية، ويجعل قلبك مطمئنًا، فتكون همّك الأساسي السعي والعمل بما أمر الله، كما يقول سبحانه : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾

فالكون ليس عشوائيًا، بل هو تحت تدبير حكيم، وإرادة الله نافذة فوق كل الأسباب، وما يختبرك به من أحداث هو جزء من هذا التدبير الذي يهدف إلى نموك، ورقيك، وارتقائك الداخلي، لتستمد من حياتك معنى أعمق، ويصبح كل ما تمر به وسيلة لبناء قوة النفس واستقرارها.

وفي قصة سيدنا موسى "عليه السلام" يتجلّى بوضوح التدبير الرباني الدقيق. حين خافت أمه عليه من بطش فرعون، أوحى الله إليها أن تُلقيه في اليم، رغم رهبة الأمر وقلق الأمومة الفطري؛ لكن اليم لم يكن إلا وسيلة إلهية

لإيصاله إلى برّ الأمان، فحمله التيار حتى استقر أمام قصر من كان يطلب قتله... وهناك، زرعت محبته في قلب آسيا زوجة فرعون، فاقتنعت بأن يتّخذاه ولدًا لهما، وقالت : **(قرّة عين لي ولك)**، وامتد التدبير الإلهي ليشمل الرضاعة، إذ حُرِّم على موسى أن يرضع من أي مرضعة إلا من أمه، فصعدت إليه الحماية والرحمة قبل أن يدرك من كان يخطط لإيذائه؛ وهكذا عاد إلى حضن أمه آمنًا ومكرّمًا، يتربّى في بيت من كان يسعى لقتله، وتنشأ نبوّته في قلب القصر ذاته.

هكذا يدبّر الله الأمور يصنع من الألم رحمة، ومن الضعف قوة، ويُسيّر الأسباب بترتيب يتجاوز إدراكنا، لأن إرادته سبحانه فوق كل إرادة، وقدرته لا يُحدّها قانون ولا يُقيدها ظرف.

وكذلك نرى في قصة يوسف "عليه السلام" لمحة أخرى من لمحات التدبير الإلهي العجيب، ذاك الغلام الذي أُلقي في الجب وحُرم من حضن أبيه، ثم بيع بثمنٍ بخس عبدًا، وسُجن ظلمًا، حتى ظنّ الناس أنه غاب وانتهى أثره، لكن الله كان يُعدّه لمقام عظيم، فجاء قوله تعالى : ﴿ **وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض** ﴾؛ فصار العزيز بعد أن كان سجينًا، وأصبح القائم على خزائن الأرض، يُطعم من ظلمه، ويعفو عمّن خانه، ويقول : **(أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا)**

فما بين الجُب والعرش، مرّ يوسف بمحطات من الانكسار والاختبار، لكن الله لا ينسى من وثق به، ولا يُضيع عبده في ظلمات الابتلاء، بل يُمهّد له الطريق، ويُهذّب قلبه، ثم يُمكّنه حين تحين ساعة الفتح والكرامة.

وأنت أيضًا، أيها القارئ... حتمًا مررت بلحظاتٍ في حياتك، وقفت فيها حائرًا أمام الأحداث، لا تدري كيف تمضي، وكيف تُحلّ، ثم فجأة، دون تخطيطٍ منك، تيسّرت الأمور، وظهرت حلولٌ لم تخطر لك على بال، واستدرت للخلف، تتأمل كيف حدث ذلك، فاكتشفت أنها لم تكن صدفة، بل كانت تدابير خفية من الخالق، رغم كل ما بدا من تعقيدات وغياب للأسباب...

ربما كنت على وشك الانهيار ثم جاءك العون، ربما بكيت من ضيقك، ثم جاء الفرج من حيث لا تحتسب، ربما ظننت أن الطريق مسدود، ففُتح لك بابٌ لم تره من قبل، وكلها رسائل، وكلها إشارات؛ وكثيرًا ما نسعى ونجتهد، ونأخذ بكل الأسباب المتاحة، ثم لا يتحقق الأمر كما تمنّينا.

للوهلة الأولى قد نظنها خسارة أو فشلًا، لكن ما إن نتأمل بعمق، ندرك أن وراء ذلك حكمة إلهية خفية، وأن الكون ليس سائبًا بلا نظام، بل هو مدبَّر بعين الله العليمة، الذي يعلم منا ما نجهله عن أنفسنا.

فإن جاءت النتيجة كما رجونا، فرحنا وشكرنا، وإن أتت على غير مرادنا، لم نيأس ولم نجزع، لأننا على يقين بأن هناك مدبّرًا أعلم وأحكم، لا يريد لنا إلا الخير.

وحتى الفشل، ما دام قد سبقته نية صادقة وسعي بالأسباب، فهو في حقيقته نجاح من وجه آخر، لأنه اصطفاء لخير أكبر، قد لا تدركه أعيننا القاصرة.

ويقيننا بالدار الآخرة يخفّف عنّا كل ما يفوتنا في الدنيا؛ فهي الدار الباقية التي يُثاب فيها المؤمن على كل ألم، حتى على الشوكة تُصيبه، إذ ترفع بها درجة عند الله وتُمحى عنه خطيئة، فتخيّل ما ينتظرك من فضل ونعيم وسرور ورفاهية، جزاء صبرك ورضاك، وما أعدّه الله لك في جنانه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فيقول ﷺ : " **يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض** "

فالإيمان والتسليم واليقين والثقة بأن للكون خالقًا مدبرًا حكيمًا، وبأنه لا إله إلا الله ، ينافي كل أمراض النفوس من خوف وقلق ويشفيها.

فالمؤمن حتى في وسط المأزق والعسر وفقدان الأسباب، يعلم أن دائمًا لله طرقًا غير طرق البشر، وإن كانت خيرًا فسيحلها ويأتي بها الله بطريقته مهما

استحالت الأسباب، فيهدأ باله ويُكمِل سعيه بيقين وسكينة ورضا، فالله يرزق بالأسباب وبدونها.

أما الخوف واليأس ما هما إلا وهم وشك وعدم يقين في الخالق، فعلى المؤمن بدلًا من الخوف أن يواجه حياته وحوادثها بحب ورضا.

﴿ ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ﴾

في الحياة، هناك من كُتب لهم العافية في كل مسيرهم؛ يعيشون في عافية، ويموتون في عافية، ويُبعثون إلى الجنة في عافية، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء.

هؤلاء هم الذين جمعوا بين حظ الدنيا والآخرة، تمسّكوا بمنهج الله، ساروا على نور اليقين، وتجنّبوا الكبائر، فكانوا من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال الحق سبحانه : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾

فما حاجتهم إلى البلاء لتكفير الذنوب، وقد صانوا أنفسهم عن الكبائر، واستجابوا لنداء الله بالإيمان والشكر؟ هنا يكون جزاؤهم الأمن والسكينة في الدارين، ويشعرون بالطمأنينة الحقيقية التي يهبها الله لمن سلك طريق الحق والثبات.

إنّ للمشاعر لغة واحدة تتفرّع إلى شقّين لا ثالث لهما: إمّا خوف يقيّد الروح، وإمّا حب يحرّرها .فالحبّ هو السرّ الكامن في استمرار الحياة بصفاء، وهو ما يمنح النفس سلامًا داخليًا يحاكي انسجام العقل والجسد.

وأعلى مراتب العبودية أن يُعبَد الله بالحبّ، لا بالخوف وحده؛ فحب الله هو طاقة مطلقة، غير مشروطة، لا تزول ولا تتبدّد، تختبئ وراءه كل ابتلاءات الحياة وأقدارها رسائل خير ورحمة.

إنّ اليقين وحسن الظن بالله هما السلاح الحقيقي أمام حوادث الدهر؛ فالفارق في تأثير الوقائع ليس شدتها، بل كيف يستقبل القلب تلك الأحداث، فالإنسان قادر على إعادة تشكيل واقعه برؤيته وتوقعاته، فيحوّل ما يبدو عتمة إلى إشراقة، وما يبدو ألمًا إلى درس يرفع روحه ويهدّئ قلبه، ومن هنا تبرز أهمية تهذيب الأفكار وجعلها دومًا في اتجاه التفاؤل والرضا.

علّمنا النبي ﷺ الاستبشار والتفاؤل فقال : **(بشّروا ولا تنفّروا)**، وأيقن عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" أنّ رضا القلب أمام القضاء هو النجاة، فقال : **(إن صبرتم أُجرتم، وأمر الله نافذ، وإن ضجرتم أثِمتم، وأمر الله نافذ)**، وهذا ينسجم مع قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾

فالحياة ليست دعوة إلى الزهد السلبي، بل إلى عمارتها والسعي فيها؛ فالعمل والكفاح وزراعة الخير في الأرض هو تنفيذ لإرادة الله، ومنحه للوجود معنى

وغايـة، يقـول ﷺ : " **لـو قامـت السـاعة وفـي يـد أحـدكم فسـيلة فليزرعهـا** "، فالسعي قيمة قائمة بذاتها، حتى وإن بدا كل شيء على حافة النهاية.

وهكـذا اجتمـع نـور الـوحي مـع حكمـة الفلاسـفة؛ فـ**(إبكتيتـوس)**، رغـم عبوديتـه وابتلائـه، رأى أنّ السـعادة تكمـن فـي مـا يمكـن للإنسـان تغييـره : أفعالـه، أفكـاره، ردود أفعالـــه، ومـــا لا يملـــك لا ينبغـــي أن يســـتنزف قلبـــه؛ وكـــذلك صـــوّر **(دوستويفســـكي)** الإنســان ككــائن قــادر علــى التكيّــف مــع كــل ظــرف مهمــا اشتدت قسوته.

إنّ الله جـلّ وعـلا قـد رسـم للإنسـان منهجًـا يـوازن بـين الحريـة والاختيـار، وبـين الامتحـان والجـزاء، فوجـود الظـالم والمظلـوم، الخيـر والشـر، الصـحة والمـرض، مـا هـي إلا صـور مـن صـور سـنّة الابـتلاء؛ قـال تعـالى : ﴿ **وَنَبْلُـوكُمْ بِالشَّـرِّ وَالْخَـيْرِ فِتْنَـة** ﴾ ، والحكمـة أن يتلقّـى المـرء هـذه الأقـدار بـوعي متـزن لا إفـراط فيـه ولا تفريط، فـلا حـزن عميـق علـى مـا فـات، ولا فـرح مفـرط بمـا أُوتـي : ﴿ **لِكَـيْلَا تَأْسَـوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾

فمـن يـوقن بـأن الله أكبـر مـن كـل هـمٍّ، ويثـق أن الخيـر لا يجـيء إلا مـن رب الخيـر، يحيـا مطمئنًـا مهمـا تبـدّلت صـور القـدر؛ وإن اسـتيأس البشـر، يبقـى وعـد الله حاضرًا : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** ﴾

ففي التعامل مع النعم في الدنيا، يقول الشيخ **(محمد متولي الشعراوي)** :

" وسوء معاملة النعمة يأتي على لونين، اللون الأول هو أن نهمل العمل على استخراج نعمة الله بالعمل والكد والجد، وأن نهملها فلا نراعي ما فرضه الله علينا من ضرورة التفاعل مع الكون لاستخراج ما أنعم الله به علينا من خيرات مغمورة في الأرض.

واللون الثاني هو أن نستخرج نعم الله من الأرض ونستأثر بها ولا نفيد كل الآخرين بقدر عملهم، وبقدر ما يكفل للضعيف منهم حق الحياة، وما يكفل للغني إحساس الأمان لو داهمته ظروف الزمن "

وحين ينتشر في الوجود أحد هذين اللونين من الفساد، فإن الأرق والقلق والجوع والخوف هو العقاب الحياتي الشامل.

ولننظر إلى دقة التصوير القرآني : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾

ولنتأمل معنى هذه الآية أن الله يضرب لنا مثلًا بقرية تحيا في اطمئنان يأتيها الرزق من كل اتجاه، لكنها لم ترع حدود الله في هذا الرزق، ولم تعمل على استخراجه، ولم توزع عائده بما يرضي عدل الله، فجعل الله لأيامها مذاق الجوع والخوف، وكان هذا المذاق شاملًا لحياتها في كل التفاصيل،

بحيث لا يوجد فيها إنسان لا يشمله الجوع والخوف، وكان الجوع والخوف لباسًا يضم كل عناصر حياة أهل هذه القرية.

ويستأنف شيخنا حديثه فيقول :

" والسبب في ذلك أن حدًا من حدود الله قد تعطل، وحدوث هذا الجوع وذلك الخوف هو ضمان لاستبقاء الجماليات في الكون.

ذلك أن المحافظة على جمال الكون كما قلنا سابقًا يستدعي أن تتفق المقدمات مع النتائج، فإذا طبَّق أهل القرية أي قرية أو معمورة حدود الله، كان الكون منتظمًا بالأمان والأمن والاطمئنان، وإذا لم تطبق أي قرية أو معمورة حدود الله، كان من الجمال أن تحيا في هذا الجوع والخوف.

ولقد وضع الله حدوده هذه حتى يمنح الإنسان فرصة الترقي، ففي المسائل التي تركها الله لاجتهاد الإنسان، يستطيع الإنسان أن يطبق حدود الله ليصل إلى انتظام الحياة بأمان واطمئنان "

إنّ فهم الدنيا والإيمان بأنها للاختبار وتمهيد لحياة أبدية، يمنح القلب مناعة ضد تقلباتها، ويزرع في الروح ثباتًا أمام صدماتها، فالإيمان هو الجدار الذي يحمي الإنسان من الانكسار عند الفواجع، وهو النور الذي يهديه إلى الطمأنينة في قلب العاصفة.

وقد قال (ابن سيرين) رحمه الله : " **ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار**"

فالذي يدرك حقيقة الكون وغاية وجوده، يتطهّر قلبه من الحسد والضغينة، ويصفو بالحبّ والرحمة، ويرى تجلّي الله في نعم عباده، فلا يملك إلا أن يلهج بلسان الحمد والتسبيح؛ ومن أدرك أنّ الأرزاق ليست سواء، أيقن أنّ الحكمة في اختلافها، وأنّ السعادة تكمن في شكر ما بين يديه لا في ملاحقة ما عند الآخرين.

قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ** ﴾ ، وقال أيضًا : ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾

لكل إنسان موهبة فريدة، قد تبدو ضئيلة لكنها تحمل بصمة خاصة لا يملكها غيره، فالحياة لا تقوم على فرد واحد؛ الطبيب محتاج إلى المعلّم، والعامل إلى المهندس، وربّة البيت إلى من يمدّها بالخير، بهذا التنوع يكتمل البناء وتستقيم الحياة.

أما الحسد والقلق والغيرة فهي أمراض القلوب، أخطر من أمراض الأجساد، إذ هي اعتراض خفي على قسمة الله.

قال تعالى : ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾

والعلاج الحقّ يبدأ من الداخل : بالعلم، وبترسيخ الإيمان بحكمة الله وعدله، وبالقدرة على مجاهدة النفس، فإذا دفعتك الغيرة إلى تمني زوال نعمة عن أحد، فادعُ له بالبركة واسأل أنت أيضًا الله من فضله.

﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم علي بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وسئلوا الله من فضله** ﴾

وإذا أوقد الحسد فيك نارًا ضدّ أخيك، فأطفئها بمدحه والثناء عليه، وإذا شعرت بالتكبّر تجاه غيرك، فتواضع له، هكذا تُهذَّب النفس وتُربَّى على خلاف ما تميل إليه من شر.

وقد علّمنا النبي ﷺ حين قال لعامر بن ربيعة وقد أصاب سهلًا بعينه :

" **هلا برّكت؟** "، أي قل : " **اللهم بارك عليه** "

فبهذا الوعي، يصبح القلب حرًا من أمراضه، طليقًا في فضاء الطمأنينة، يرى في اختلاف الأرزاق والمواهب نظامًا إلهيًا بديعًا لا يورث إلا سلامًا وحمدًا.

وكذا كما جاء في سورة "الكهف" مما يدفع العين:﴿ **ما شاء الله لا قوة إلا بالله** ﴾

قال ابن الحسن في ذلك : " **ابن آدم لما تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه، فلما تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلما تحسد من مصيره إلى النار؟** "

ويقول **(الإمام الغزالي)** في دواء الحاسد : " **يحتاج القلب الحاسد إلى دواء من علم وعمل، فأما العلم فأن يعرف الحاسد أن الحسد ضرر عليه في الدنيا والدين، ولا ضرر على المحسود في دنيا ولا دين بل ينتفع به فيهما، فإذا تبصَّر الإنسان في ذلك فارق الحسد ولا بد** "

وكما نقل الدكتور **(محمد محمود)** عن كتاب **(الأحياء)** فيقول : " **فأما الدواء المفصَّل فهو تتبع أسبابه في النفس وقمعها، فهي أسباب المرض ولا زوال له إلا بزوالها** "

وكما جعل الله للحاسد علاجًا، جعل لعباده وقايةً ودواءً، فهو الأعلم بصنعته، والرحيم بخلقه، وما من نعمة يُرزقها الإنسان إلا وكان عليه أن يردّ الفضل إلى صاحب الفضل، فيلهج لسانه قائلًا : " **ما شاء الله، لا قوة إلا بالله** "، فهي كلمة تردّ العين، وتثبت النعمة، وتذكّر المنعَم عليه أن ما بين يديه ليس من حوله ولا قوته، بل منحة من العليّ القدير.

ومن تمسّك بما جاء في المنهج الرباني من وقاية، علم أن ما يصيبه إنما هو من أمر الله، فيرضى ويستسلم، مطمئنًا أن يد الله التي أعطت هي وحدها القادرة على أن تمنع أو تبتلي.

الحاجة إلى الحب

الحب هو السرّ الذي يبرّر السعي في هذه الحياة، ويجعل المكث فيها محتملًا برضا وأمل، إنه القوة الخفية التي تمنح الإنسان القدرة على مواجهة أقسى الظروف، وتجعل المستحيل ممكنًا، فما إن يتذكر المرء محبوبه، حتى تخف وطأة بؤسه، ويغدو الألم أهون مما كان.

السعادة الحقيقية كامنة في الحب؛ فحتى في أفقر اللحظات وأشدها بؤسًا، يكفي أن يستدعي الإنسان صورة من يحب في مخيلته ليذوق شيئًا من الطمأنينة والسكينة، ولهذا، كانت العبادة بحبّ الله أصدق العبادات، والعمل بحبّ أقصى درجات الإتقان، كما يقول دوستويفسكي : " **إذا أردت أن تعيد إنسانًا إلى الحياة، ضع في طريقه إنسانًا يحبه، إنسانًا يؤمن به؛ فالعقاقير وحدها لا تكفي** "

الحب قادر على تغيير السلوك والشخصية؛ ما كان مستحيلًا يصبح ممكنًا، وما كان عسيرًا يصير يسيرًا، وهو لا يقتصر على الجسد أو العقل، بل يمتد إلى عمق الروح، حيث يتجاوز حضور المحبوب أو غيابه، ويكفي طيفه ليبث في القلب نورًا وطمأنينة.

والحب لا يمنحنا لحظات السعادة فقط، بل يعلمنا عن أنفسنا أكثر مما نظن؛ به نتحمّل المعاناة، نصبر على الألم، ونحقق ذواتنا.

وكما عبّر **(كافكا)** في رسائله **لـ(ميلينا)** : " **أنا لا أحبك أنتِ، بل أحب وجودي الذي يتحقق من خلالك** "، فإن الحب يجعلنا ندرك معنى حياتنا وكياننا في أعماقه؛ ولذلك، ترى الأب يتحوّل بعد إنجاب أبنائه، والشاب يرقّ قلبه حين يقع في الحب، فيسلك مسالك لم يعرفها من قبل.

بالحب تتسع الصدور، وتتجاوز الهفوات، ويتولد العزم على التضحية، سواء كان حبًّا للوطن، أو للأهل، أو للإنسانية.

لكن كل صور الحب هذه ما هي إلا أنوار مشتقة من الحب المطلق : "**حب الله**" ، فمن ذاق هذا المقام، عاش في انسجام مع الكون، وسلام مع ذاته، ورضا يبدّد خوفه وقلقه، وما عادت الأقدار تُفنيه كما كانت من قبل، لأنه أدرك أن مصدرها هو الحبيب الأعظم، الذي لا يأتي منه إلا الخير...

الحب الإلهي حبّ غير مشروط؛ يحبك الله على كل حال، في طاعتك ومعصيتك، في قوتك وضعفك؛ كما جاء في أثر **(ابن القيم)** : " **أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي؛ إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهّرهم من المعايب** "

ومن هنا، يصبح الابتلاء نفسه وجهًا آخر للحب، امتحانًا يطهّر النفس ويقرّبها من الله، قال النبي ﷺ : " **ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة** "

فاستشعار هذا الحب الإلهي يحوّل الألم إلى فرصة، والخسارة إلى مكسب روحي، ويجعل كل تجربة من تجارب الحياة رسالة، تنير الطريق وتعمّق فهمنا للوجود، وتقرّبنا أكثر من مصدر كل خير وجمال.

وقد لخص المتصوفة هذا المعنى في أبياتهم، فقال القائل يخاطب ربه :

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ * وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ * وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الود فالكل هيّنٌ * وكل الذي فوق التراب ترابُ

إنه الحب الذي يطهّر القلب من علائقه، ويجعله ينجذب إلى مصدره الأول الله.

وهكـذا، عزيـزي القـارئ، الحـب هـو قـانون الوجـود الأعظـم، وسـر تجـاوزه لمتناقضـاته، وبوصـلته التـي تـردّ الإنسـان إلـى غايتـه الكبـرى : معرفـة الله والأنس به.

كمـا جـاء فـي الأثـر عـن قصـة **(زليخـة) و(سـيدنا يوسـف)** "عليـه السـلام" بعـد مـا كانـت مولعـة بـه لدرجـة الخطيئـة وعانـت سـنين فـي ظـلام وفـراق ووحـدة، كـل هذا كان السبب في وصالها إلى معرفة الله وحبه.

وذكـر فـي الأثـر، بعـدما جـاء إليهـا يوسـف قـال لهـا : " **مـا شـأنك لا تجيبينـي كما في أول مرة؟** "

قالت له : " **لما ذقت محبة الله تعالى، شغلني ذلك عن كل شيء** "

وهكـذا تحـول الحـب مـن صـورة أرضـية ناقصـة، إلـى جـوهر سـماوي مطلـق، حيـث ينكشـف للـروح أن كـل حـب دنيـوي لـيس إلا مـرآة باهتـة تعكـس قبسًـا مـن النور الأعظم : حبّ الله.

ويحكـي فـي كتـاب **(المواقـف والمخاطبـات)** إلهامـات لـه عـن الله الإمـام العـارف محمد بن عبد الجبار النفري، فيقول : **يقول الله لعبده :**

إذا اجتمعت بسواي فتفرقت ما اجتمعت.

اجتمع بي تجتمع بمجتمع كل مجتمع وتستمع بمستمع كل مستمع.

فتحوي سواك فتخبر عنه ولا يحويك سواك فيخبر عنك...

الواقف في حضرتي لا يروقه الحسن ولا يروعه الروع، لأنه يرى الظاهر لا المظاهر.. يرى الجمال وليس الجميل.. يرى المطلق لا المقيد.. يرى المجرد وليس المتعين؛ وجهي للوافقين؛ وأخباري للعارفين "

ويكمل الإمام في نفس الكتاب : " **يقول الله لعبده : من أحببته من خلاني وأحبابي كلمته بلا عبارة، فخاطبه الحجر والمدر وقال للشيء كن فيكون، ولو أني كلمته بعبارة لردته العبارة إلى نفسه بما عبرت وعما عبرت، ولا أحتجب بارتداده، ولما جاءته الحكومة ومقاليد الفعل والسلطان "**

ويقول **(نيتشه)** : " **إن من يجد سببًا يحيا به فإن في مقدوره غالبًا أن يتحمل في سبيله كل الصعاب بأية وسيلة من الوسائل "**

إن حالة التسليم التي يعيشها المؤمن في لحظات الصلاة، هي عودة الروح إلى أصلها، واتصالها بالمصدر الأزلي واللانهائي الخالق سبحانه وتعالى هناك، في حضرة السجود والخشوع، تتخفف النفس من ثقل الجسد، وتذوب الحدود بين الإنسان والسماء، فنشعر بصفاء عميق وأمان مطلق، وكأننا نعود إلى وطننا الأول، حيث لا خوف ولا قلق.

في هذه اللحظات ينكشف السبب الحقيقي لوجودنا، ويبدو لنا حجم الدنيا صغيرًا ضئيلًا، مجرد وهم عابر أمام الحقيقة الكبرى. إن التسليم لله يفتح باب السلام، فيغيب الزمان والمكان، وتذوب الروح في وحدة مع الكون، حتى يكاد الوجود كله يصبح انعكاسًا لذات واحدة.

***

الخاتمة

منذ فجر الخليقة والإنسان مشغول بسرّ الحياة، يتأمل معناها، ويضع لها مناهج وسبلًا؛ من أرسطو حتى يومنا هذا، ما زلنا نبحث عن السعادة وعن إشباع ذواتنا، فمنا من ظنّها في المال والسلطة، ومنهم من رآها في الحب والعائلة، أو في الفن والإبداع، أو في تحصيل العلم، أو في ترك أثر يُخلِّد الذكرى.

لكن السرّ، كل السرّ، يختصر في كلمة واحدة : التقبّل...

تقبّل الاختلافات بين الناس، وتقبّل الإخفاقات كما النجاحات، تقبّل تقلبات الأقدار والحوادث، تقبّل أنّ معنى الحياة عند شخص ليس هو ذاته عند آخر، وأنّ الإنجاز عند إنسان قد يختلف عن غيره باختلاف الهبات والمعوقات والقدرات.

التقبّل أن للألم حتميته، وللأدوار في هذه الدنيا تنوّعها، وأنّ كل قدر مهما بدا ظالمًا أو عبثيًا إنما هو خيط في نسيج محكم لا فراغ فيه ولا سُدًى.

التقبّل أن الدنيا ليست مقامًا دائمًا بل رحلة عابرة، مهما طالت فهي قصيرة.

بهذا التقبّل يستشعر القلب السكينة، ويجد الروح الرضا، ويغدو السعي في دروب الحياة خفيفًا، لا تثقله الأحزان ولا تستهلكه الأوجاع.

قال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾